طبعة مصر



نقطة فوق الحاء

مؤسسة اروقة للدراسات والترجمة والنشر

القاهرة – ش الشيخ معروف متفرع من ش شمبليون – عمارة ج - وسط البلد

تلفون: 20225743534+

البريد الإلكتروني: arweqhhhh@gmail.com

رقم الإيداع: 2020/4450

الترقيم الدولي: ISBN:978-977-6780-28-7



النشــر: ٠٥٥٤٤٤٩٥١٨
المبيعات: ٠٥٥٧٠٦٧٠٧٤
الإدارة: ٠١٢-٦٢٠٣٩٤٧

Erfaa_pd

يمكنك طلب إصداراتنا أو تقديم طلب نشر عبر الموقع

www.erfaa.com.sa

الطبعة الأولى

2020







نقطة فوق الحاء

سَام الغُبَاري

SAlghobari

الطبعة الأولى

٢٠٢٠م-١٤٤١هـ

إلى روح

خالــــد الدعيس

عبـدالله قـــابل

عبــــده المختاري

محمد مشوح

يوسف العيزري

استـــتندت هــذه الروايـــة إلى الواقع، لكنها بُنِيت بالخيال، سواءً ما تعلّق بالأحداث أو الشخصيات.

- ١ -

مرحبًا..

أنا شاهين

أبلغ من العمر ثلاثين،

ومن الطول مائة وثمانين،

ومن الوزن سبعين.

في الماضي، كنتُ مشهورًا باسم"الأزرق"، أحيانًا"الحالي"، عبدالملك الحوثي كان يناديني"القُمري"، قررتُ أنْ أصل سنَّ الأربعين بإنجاز حكايتي المريرة قبل أنْ أموت!، فقدتُ كلَّ شيء؛ أبي، إخوتي الصغار، ولم أتزوج لأني لا أحبُّ النساء!.

في الحرب السادسة، قتل عبدالملك الحوثي عائلتي، اختطفَهم إلى سجن صغير في آل مسعود بمنطقة سحار صعدة، وأمر أتباعه بزرع المتفجرات على أركان بيت صغير من غرفتيْن استخدمه لسجنهم، قضى عليهم جميعًا. مزّقهم، أحالهم إلى كومة رماد، واتهم بهم طيران الحكومة اليمنية، بعد سبع سنوات دخلتُ سجنًا انفراديًا على مسافة

ثلاثة كيلومترات في الشـمال الشرقي من عاصمة صعدة، أشاهد دخان الصواريـخ وانفجار الرمـل ودويّ الصوت. أتكوَّم على جسـدي في زاوية الزنزانة، أنتفض لتأثير القذائف، ألعن الحرب ومُسـعِّريها، أنتظر صاروخًا يُخطئ طريقه إلى خلوتي، يخترق الجدار، يمزِّقني. يدكُّ عظامي، ويدفنني تحت أطنان البارود والتراب. بين صاروخ وآخر مسـافة عشر دقائق، كنت أغـرس أصابعي على نتوءاتٍ وأحجار بـارزة في الجدار. ألتصِقُ بجسدي وأرتفع كما تفعل السحلية، أعبُر بنظري إلى الخارج من فتحة صغيرة موصدة بشباك صلب، أشاهد البيوت على حالها، ودخانًا أسود كثيفًا في الجانب الأيمن من المدينة، صوت صاروخ يقترب، عواء مرعب أفلت أصابعي من النتوء، سـقطتُ أرضًا بعنـف، انفجار آخر قريب أيقظني من إغماءة طفيفة، حبوتُ عـلى باطن كفيَّ وركبتَيَّ باتجاه ممرٍّ طويل ينفذ من الزنزانة، وينتهي ببـاب حديدي موصد من الخارج بسلسـلة ضخمة عليها قفل ضخم لم أرَ مثله، على الجانب الأيسر قبل نهاية الممر دورة مياه. انفجار آخر قذف أتربة وحصى إلى داخل الزنزانة، درتُ حول نفسي مثل أفعى، قذفتُ جسدي إلى داخل دورة المياه، ضربة أخرى، صوت مفجوع يأتي من الزنزانة المجاورة، سـمعتُه بوضوح من مخبئي تحت عمود المغسلة الفخاري الأبيض، كرر الصوت بهلع وبكاء، ومعه صوت آخر نداء اسـتغاثة لآمري السجن لإخراجهما، في أعقاب الساعة الأخيرة للسجينيْن المسكينيْن ظنَّ أفراد الحراسة أنَّ الطيران غادر

أجواءهم. اقتربــوا بعربة (بي أم بي) مدرعة، أطلقوا ســيلَ رصاص من المدفع الرشاش في الهواء، خبْط أقدام على الحصى، ضربات ثقيلة تهز باب الغرفة المجاورة. ارتفع صوت غاضب"اســكتوا يامرتزقة، لن تخرجوا!، أنتم مَن يحدد لطائرات العدوان أماكن القصف"، هرعتُ لباب زنزانتي، ضربته بكلتا يدَيَّ، صحــتُ: أخرِجوني، أنا شــاهين. أصوات في البهو الخارجيِّ رددَت اســمي، أحدهم يقول: إنه هنا!. آخــر يردُّ: أخرِجوه؛ نحن نبحث عنه منذ يومين. جلجلة سلسلة فولاذية تُسحب على مقبض الباب، كفٌّ عنصر حوثي تظهــر من ضلفته، يصيــح بهلع"هيا، اخرُج بسرعة!"، عند البوابة الرئيسة، قبضتُ على ذراع الفتى الناحلة أستمهله، أستعطف نخوته لتحرير السجينيْن ونقلهما إلى مكان آخر. ردّ بحزم"إنهما صحافيان، ولدينا توجيهات من مكتب الســيد أنْ يبقيا مكانهما". دفعني بخشــونة قائلًا:"لا تحاول!".بينما كنتُ محتضنًا خاصرة سائق حوثي من حرس"القلعة" على دراجــة نارية تأخذني لمكان لا أعلمــه إنفاذًا لأوامر تاهت في زحام الحــرب وهلع الأفــراد وصواريــخ التحالف، ضرب صاروخ مفاجئ عربة الـ(بي أم بي) وأحالها إلى كتلة لهب مشتعل، صوت صراخ يستغيث، شتائم، صاروخ آخر ضرب وســط"القلعة"، اخترقها مثل رمح غرس نصله في علبة كارتون، قــذف بي ارتجاج الضربة وتأثير الضغط الهائل مسافة متريْن، حين فتحتُ عينَيَّ، أو هكذا خُيل لي، كانت السماء حمراء. حين فتحتُهما مرة أخرى، كانت السماء سوداء.

القلعة جبلٌ وسـجن، اسـتخدم الحوثيون مبنى حكوميًّا غير مأهول على قمته لسـجن مخالفيهم، كانـت تلك المـرة الثالثة التي أصعد فيها إلى الجبل مشـفوعًا بوصية"عبدالملك الحوثي" لا تؤذوه. السـجن فقط، يلطفون العبارة بوصفها"توقيفًا تأديبيًا". في الأسبوع الثاني لإعلان الحرب العربية على ميليشـيا الحوثـي، زُجّ بصحفييْن في زنزانة مجـاورة؛ الأول"عبدالله قابل" والثاني"يوسـف العيزري"، مراسلان لقناة سـهيل. في الزنزانة الثالثة أقصى اليمين زُجّ بـزميلي الضخم"جمال المقـدشي". الصحافيان قُتلا على الفـور، انهار عليهما سـقف القلعة، الصاروخ فتح ثغرة لـ"جمال" في منتصف السجن، فرَّ منها مكسوًّا بُغبار هائل وفجيعة أصابته بخدوش رجل عاد لتوِّه من الموت، يمضي في طريقه إلى منزل والده مبهوتًا مثل شـبح، يتحسس جسدَه غير مصدق أنه أفلت من قبضة عزرائيل، لم يلتفت وراءه لئلا يراه، حين سـأله والدا الصحافييْن قال:"كُنت أسـمع أنينًا"، اختتم الإجابة بشـتيمة قاسـية نالت من عبدالملك الحوثي وأبيه. سيارات الحوثيين نبشَت شـوارع المدينة بحثًا عنه، اقتحمت غرف أصدقائه، لم يغتسـل"جمال" إلا في مأرب، ناوله"سـلطان العرادة" بندقية AK، وخط سلاح ناري بتسعين رصاصة، وفي مطارح نخلا على ضواحي مـأرب، اصطاد"جمـال" عشرات الحوثيـين، قـال لرفيقه"مبخوت المرادي": سأذيقهم الموت الحقيقيَّ!.

هي المرة الأولى التي يفاجئني "عبدالملك الحوثي" بحضوره، حين توقعتُ أنْ يُطل حارس السـجن بعينيْه الضيقتيْن ووجهه الضخم بأذنيْن مثل "فيغا" في مسلسـل غرانديزر الكرتوني، سـمعتُ صوتًـا مألوفًا من الماضي، أدرتُ وجهي إلى الوراء، فكان هو، وحيدًا، وسـواد ظاهر حول جفنيْه أثار عاطفتي، أعيتْـه الحرب في كلِّ الجبهات. منـذ ٢٠٠٤ ويده مغروسـة في الدم، أظهرت تقاسـيم وجهه شـحوبًا واضحًا، همّ بقول شيءٍ، أغلقتُ شـفتيْه بلمسة سبّابتي، همسـتُ في أذنه: اليوم أنا إمامك، وغدًا تصير إمامي!، افترَّ ثغرُه باسـمًا، لم يعلِّـق. ضُرب الصاروخ قريبًا من محبسي، وأضاء وهجه فراغ الغرفة لثوانٍ، وعاد السـكون إلا من أنين الإمام الجديد!.

لم تهدأ صواريخ التحالـف حتى مطلع الشـمس، لم يهدأ أحد! كان كل شيء مبللًا ومحترقًا، فاضت السـماء بمـزن فائض عن حاجة الحقول، صعدة أعلنت أنها لن تزرع شـيئًا، قررت الانتقام، الهاشميون في هذه البلاد زائدون عن حاجتنا كيمنيين، وقـد أدركوا صنعاء فارغة فاحتلّوهـا، تمدَّدوا في كلِّ ريـف ومدينة، قـال لهم "عبدالملك الحوثي" أريد أنْ أسمع صراخ اليمنيين، وقال لي قبل أنْ يخرج من غرفة العقاب إنه سـيأمر أتباعه بإحضار شاشـة تلفاز نقية، ومعدات تشغيل للطاقة الشمسـية. "إنه يُحب أنْ يُعامل أسراه وفق ما قالته الشريعة"!. انحنيتُ بحركة مسرحية وقلتُ: ما أعدلك يا مـولاي!. ضحك متجاوزًا الممر

في طريقه إلى الخارج، ســمعتُه ينادي أصحابه الذيــن يُخلصون له حدَّ التضحية بأنفســهم، ثم صرير الباب الحديدي. الضوء يتسلل من كوَّة صغيرة في هذا المحبس اللعين، اغتسلتُ، ودنوتُ للصلاة.

بعد شــهر، أصدر عبدالملك الحوثي قراره بالإفراج عني للمرة الثالثــة. تابعتُه على شاشــة قناة المســيرة، حفظتُ خطاباته، شــاهدته منكسرًا، مُهدِدًا، وغاضبًا، كان شــخصًا آخر، ليس ذلــك الذي ألفتُه صديقًا في طفولتنا، يبتســم بمكر، ويؤذي حدَّ جريان الدم، يكذب بلا وازع، ويتذلل كحقير. وضع آمر الســجن الغليــظ الأغلالَ في يدي، أمرني بالصعود إلى عربــة تنتظرني عند بوابة الســجن"الجديد"، فردتُّ قامتي، تمتمتُ:"أخيرًا!"، ذهبتُ باتجاههــم، أعادني ضوء ذلك الصباح الســاطع إلى الوراء قليلًا، اســتخدمتُ ذراعي لحجب أشعة الشمس، قفزتُ بخفة إلى كرسيِّ الراكــب في المقعد الأمامــي، انطلقنا بحذر في شِــعاب ضحيان، على الجهة المقابل للطريق الترابي عــلى أنقاض مبانٍ دمّرتها طائــرات التحالف العربي، حتــى بلغنا منزلًا صغــيرًا معزولًا من الطين، عليه حارســان يرتديان ملابس يمنية وقد بدت ســحنتهما كقوقازيين، حررني السائق من قيودي واقتادني إلى داخل المنزل، وهناك التقيتُ بعبدالملك، سعيتُ لعناقه، لكنَّ يدًا مجهولة انتزعتني إلى الخلف، فارتبكتُ. قال لي بصوت بارد كالثلج: لقــد أفرجتُ عنك وفاءً لما بيننا من الصداقة القديمــة، ونظر إلى عيني مباشرة فأطرقــتُ، برهة أخرى

من الصمت قبل أنْ يُكمل حديثه: أريدك أنْ تغــادر صعدة على الفور وتنضمَّ إلى اللجان الشــعبية، ومن اليوم صــارت كُنيتك:"أبوعقيل"، أومأتُ برأسي موافقًا، رفع ســبّابته كأنه يُحذرني: طاعة السيد من طاعة الله، لا أريد سماع اعتراضات أخرى!. صمت، انتظرتُ طويًلا لأعلق: بالطبع. تنهَّد عبدالملك وأردف: نحن نواجه قــوى العدوان التي تريد ســحق نضالنا ومحو محبة النــاس لآل البيت، ولو تركناهــم لخياراتهم لقتلونا واستضعفونا كما فعلوا بشقيقي حســين رضوان الله عليه، ومن واجبكم كيمنيين أنْ تنتصروا على هذه القوى المســتكبرة، ونشــدد على الصرخة فإنها تهز عروشهم!.

- وماذا بعد؟. قُلت.

رفع كفيْه في مواجهتي، تحرك قليلًا إلى اليسار، حرص أنْ يُغلف صوته بنبرة حزن: يجب أنْ تتذكر أنَّ مَن قتــل عائلتك هو"علي عبدالله صالح"، ولكنه اليوم حليفًا مؤقتًــا. انتفضتُ مفزوعًا: ما الذي حدث؟ حاول أنْ يســتفيض، لكني لم أســمع شــيئًا، لم أتذكر ما قاله، حاولتُ تذكيره بعهده القديم بينــما نقف على أطلال المنزل الــذي دُفن والدي وإخوتي تحت خرابه، حين عهد إليَّ قيادة"كتيبة الموت"، كُنّا خمسين شابًا نواة الكتيبة، جمعنا ثأر واحد. الانتقام من رؤوس النظام الذين سحقوا عائلاتنا في حروبهم الست. لم أُلقِ بالًا إلى ثرثرة تتهم"عبدالملك الحوثي" بالقتل، حين أفضتُ إليــه بأقوالهم، لم ينبس بشــفة، تأمَّلني طويلًا، ثم

تركني في غرفة معتمة كان صالح الصماد يقف في زاويتها اليمني، حين خرج، اندفع الصماد يلومني بشـدة على شكوكي، سـألني بحذر:"مَن أشعل الحرب؟"

- عفاش.

- هو القاتل يا شاهين.

بلى، مازلت أذكر يدَ الصماد تصافحني، وشـفتيْه تتحركان بيمين مغلَّظة تُقسـم على قوله وبراءة سـيده. حين خرجتُ من فرجة الباب الخشبي، أطلقتُ زفرة حارة، اسـتدرك الصماد ماكرًا ومعلقًا: يا شاهين أنت القمري حقّ السيد. ضحكت. رفعت سـبابتي مُنبهًا وعلى طرف شفتي ابتسامة لدعابته.

بعد سـنوات انتظار الظفر بـ"عـلي عبدالله صالـح"، تدور بي الأرض، مُنهارًا على كرسيٍّ حديدي بالقرب من مدخل الغرفة العطنة، لا أدري أين كُنت!؟، وصوت يهمس في أُذُني، لا تصدّق السيد!، أقسم لك أنه من فجّر منزلكم وقتل عائلتك كلها. كانت الشـمس ترسـل أشعتها النافذة في ذلك الصباح المفجع، وشَعر الرجل الكثيف يتدلى على وجهي، ولثام أسود يحجب أنفه وشفتيْه.

- مَن أنت؟ سألته.

- أنا عبد الله، ولن أبيع ذمتي.

بكيتُ كثيرًا، انتحبتُ كامرأة، مكتــوف الركبتيْن بالذراعيْن على ظهر سيارة مكشــوفة في الهواء، ســمعتُ صوت الطائرة يقترب، يدنو كثيرًا، ثم يرتفع ويغيب، وكأنها رأت دموعي فغادرت من حيث أتت. كان المرافق الجديد يجلس في زاوية السيارة ينشد زامله:

نقسم برب العرش خلاق السماء

بانعدم الجيش السعودي نعدمه

اصمت أيها الأحمق، فأنا لا أحتاج شــيئًا من هــذا الهراء!، قلتُها في نفسي، وقد توقف عن إنشاده، هل سمعني؟ كان يحدق فيّ كمجنون ظامئ أدركــه الموت، عينــاه جاحظتان نافرتــان تــكادان تقفزان من محجريْهما، وشحوبه أصفرُ كلون الجراد.

- ما اسمُك؟ سألته

- مثنى جرادة!

أطلقتُ ضحكة هيستيرية في الهواء، بلغَت مسامع السائق الذي توقف في حركة مفاجئة قفزَت بهذا المرافق الجرادة ليصدم رأسُــه بنافذة الزجاج الصغير، ويطير سلاحه الآلي إلى الزاوية الأخرى، يتآوه. أخرَج الســائق رأســه من النافذة المجاورة صاح: ماذا هناك؟ نهرتُه بكفي: لا شيء، كنتُ أضحك.

- تضحك؟! أجابني مندهشًا

- أيوه.
- ألم تكن تبكي وتنتحب قبل قليل؟
- نعم.
- ما الذي تغيَّر يا أبا عقيل؟

وقعَت عبارته في نفسي موقعًا استجاب له غروري، وأردفتُ حاسمًا أسئلته المتطفلة: لا شيء؛ فقط أنا متحمس لإعدام الجيش السعودي!

- كلنا ياسيدي كلنا، بعدهم، بعدهم "غادي الله بغادي".

وانطلقت السيارة.

وصلنا مركز مدينة صعدة، أطلال مبانٍ حكومية استعملها الحوثيون مخازن للسلاح وأصابتها صواريخ التحالف العربي، المرافق الجرادة يشرح صمود عناصر الشعبية، سألتُه: وماذا عن عفاش؟

- التفت برأسه المضحك: سنقتله، لكنَّ أوامر السيد لم تصل بعد.

كان كلُّ شيء بائسًا في صعدة، صوت الموت يعلو، وشعار جماعة الحوثي يملأ الشوارع يلطخ الجدران، لون أخضر وأحمر قانٍ تتخلله عبارات الموت لأميركا وإسرائيل!، سألتُ مرافقي: ما هذا كله؟

- إنها ألوان الشعار، شعارنا. وضرب صدرَه بفرح
- وعَلَم اليمن؟!، سألتُه

- لا لون إلا هذا، ولا شعار إلا الصرخة. قالها بحسم
- هذا هو شعار حسين الحوثي، أتذكر اللون الأحمر والأخضر.
- يستمر الشعار باستمرار المسيرة القرآنية، شعار سيدنا الجديد
- أها.. إذًا هو عبدالملك..
- نعم، إنه السيد.

لا يعرفون سيدهم كما أعرفه، تفاصيله الصغيرة منذ صرخ ليلة السبت في بيت والده القصير، فقيه القرية حتى بلوغه ورحلاته في جماعة الشباب المؤمن، انهياراته العاطفية، ابتلعتُ أسراره في جوفي، هي أسرارنا معًا، لحظاتنا معًا، يوم شدونا في مزارع البرتقال على ضفاف قرى دماج، نسترق السمع ونرمي الطلبة السلفيين الأجانب ببقايا الطماطم الفاسد، نصرخ في وجوههم: ارحلوا يا وهابيّين. مازلت أتذكر تبسُّمهم، ذلك البوسنيّ الطويل ذو اللحية الصهباء يمسح عن نفسه الأذى ويستغفر الله، ولا ينهرنا، يمضي هازئًا، أتذكر أصابع عاقل القرية العجوز ترفع عبدالملك من أذنه، صوته مثل فحيح، يسأل بعينيْن حمراويْن: "مَن أرسلك يا عاق؟"!، عبدالملك يصيح من الألم مُرددًا: إنه أبي، أبي.

- أين عاقل قرية دماج الآن؟ سألتُ المرافق
- قتله المجاهدون.

- أووه، لماذا؟

- إنه داعشيّ.

أشحتُ بنظري بعيدًا، وطفقتُ أمشي كالعدو وحيدًا في نهاية يوم بارد، السماء قانية بلون الدم على تخوم المدينة، وخلف جبل الصلب ترج أنواع الصورايخ تدكُّ عددًا من مخازن التسليح.

في المســاء، غادرت الشــوارع بحثًا عن منزل آمن، ألفيتُ "علي المرتضى" على باب حانوت صغير، دعاني إلى منزله فاعتذرتُ، ســألني عن قرار ســيدهم الأخير بتوليتي مهمة جديدة، أجبتُــه مؤكدًا، ربت كتفي مهنئًا، وطفق يحدثني عن أشــياء تافهة، لقــد انتصرنا في نجران، قوات العدوان تخسر ونحن نتقدم في جيزان وعســير، صواريخ السيد الباليســتية ترجُّ شــوارع الرياض وتدكُّ المدن!، أشاهد شــفتيْه فقط، صدري يؤلمني مرة أخرى، كلما شــعرتُ بالحزن تغيم الحياة في وجهي، ثم أسقط.. أنا الآن في مستشفى الســلام في صعدة. يهمس الأطباء أنَّ ورمًا ثقيلًا ينمو ببطء في رئتي اليمنى.

..

في الزمن البعيد، كان عبدالملــك الحوثي فتى والده الصغير، بعد أنْ غادر شقيقه الكبير حسين إلى صنعاء ليؤدي اليمين الدستورية عضوًا في برلمان دولــة الوحدة مُحققًا نــصرًا غير متوقَّع في انتخابات شرســة، دعمته قوى المدّ الاشــتراكي ممثلًا عن حزب الحقّ الزيدي، توليفة من

الثوريّين أخسرت منافسه المحظي بتأييد حزب المؤتمر الشعبي العامّ. علي عبدالله صالح الحذر مثل غراب لم ينتبه للفائز الجديد، لم يكن شخصًا مميزًا، نادرًا، صالح يملك فقط تلك الحساسية الرئاسية من تغوُّل الزيود المتشددين في صعدة واستقطابهم لأبناء العشائر اليمنية من قبائل خولان بن عامر، حين وصل حسين الحوثي إلى صنعاء الغريبة على متن سيارة دفع رباعي، انصرف شقيقه عبدالملك لإدارة شؤون مسجد القرية، لم يكن يقضي حاجة من شؤون والده الخاصة، لرغبة أبيه أنْ يبقى في مسجدهم، يتعلم فقه الزيدية التي تواجه الانحسار ومصاعبَ جمّة من التمويل والتأييد والحشد، فعلى بُعد كيلومترات قليلة من مسقط رأس حسين الحوثي نشأ أول تهديد لزيديتهم. مقبل بن هادي الوادعي أسَّس أولى حواضن السلفية الراديكالية، وهناك كانت المواجهة نارية بلا سلاح، حديث بحديث، تفسير بتأويل، تضعيف أسانيد، جرح رواة، حروب استقطاب بالغة الأهمية تلقى دعمًا من الرئيس "علي عبدالله صالح" وشقيقه "محمد" بوصفه رجل السلف الأول في النظام.

أوقف "حسين الحوثي" سيارته أمام منزل اللواء يحيى المتوكل وزير الداخلية، كان جائعًا،لم يتناول شيئًا منذ مساء الأمس الأربعاء، بالقرب من كوخ خشبيٍّ صغير لحراسة الوزير، أشار حسين إلى الجندي البدين، سأله: "هل السيد هنا؟" قطّب الجندي حاجبيْه، زمّ

شفتيْه، تبسّم "حســين" أقصد، هل الوزير هنا؟ ثم أردف سريعًا "أبلِغه أني حســين الحوثي وقد جئتُ إليه في موعدي حســب توجيهاته". نقر جنديٌّ الحراســة هاتفَ الكوخ الأرضي الأســود ذي الأزرار الفضية، انتظر برهة، مطرقًا إلى الأرض، شفتاه تتحركان، ثم يعود لمراقبة الرجل الجالس أمامه خلف مقود سيارة الدفع الرباعي بُنية اللون، غطّى بكفه سماعة الهاتف وسأله، ذكّرني باسمك؟ مَن؟.

قل له: حسين... حسين الحوثي.

أغلق الجندي ســماعة الهاتف، خطى بتثاقل نحو السيارة، أدخل رأســه من النافذة، ســأل: هل لديك سلاح؟. تبسم حســين "قريبًا"، ثم ضحــك، أعاد الجندي رأســه إلى الوراء في حركــة دفاعية، ظهرت على ملامحه حيرة وســكنته ريبة شرطيٍّ أحسَّ الخطر، اندفع بيد غليظة يفتح باب السيارة، يفتِّشها بدقة، انتبه لوقع ضربات خفيفة على ظهره، استدار وألفى أحمد نجل الوزير يعلق ضاحكًا ماذا تفعل؟ الوالد منتظر ضيفه الجليل، إنه عضو مجلس نواب! ألم تســمع بالقانون الجديد الذي يمنحهم حصانة من التفتيش.

أطلق حســين ضحكة مكتومة وقلّــب كفيه عجبًــا "هكذا هم العسكر!"، ترجَّل من سيارته معانقًا الفتى الأمرد، وبقليل من المجاملة عاد حســين الحوثي يقود ســيارته وســط غابة صغيرة في فناء الوزير الواسع، أشجار الزينة، زهر بساتين، أشجار طلح، شتلات صغيرة من

الرمان تنمو على الجانب الأيمن، شجرتا تينٍ عربي. كلب حراسة أسود يفز وينبح، في المربع الأخير، أطلَّ منزل الوزير، ثلاثة أدوار مبنية بطريقة هندسية حديثة، عمودان إسمنتيان من الأسفل رُصِّعا بفسيفساء إيرانية ينتصبان شـامخيْن في مواجهة البوابة الخشبية العالية وإليهما تستند شرفتا الدور الثاني والثالث، في الأرض سـلالم طويلة مـن الرخام الرمادي. تلفَّت حسـين حوله وعلى حاجبيْه علت دهشـة إعجاب، نفض ثوبَه الكاكي بيديْه، أدار رأسـه إلى أسـفل. تأكد من الكيّ بطريقة تناسـب أناقة الرجل المقبل عليه من بوابة المنزل وعلى شـفتيه ابتسامة ودٍّ، هرع حسين نحوه محاولًا إخفاء ارتباكه، ثم انقض على وجنتيْه بقُبلات ريفية أسعدَت الوزير الذي حيّاه بترحيب غامر، ورافقه إلى الداخل.

يتذكر حسـين منزل والده الصغير عند سـفح جبـال المجازين، يتذكر الأرض التي بُني عليها منزلهم هدية من شيخ القرية سعيد هضبان، وهو زيدي موالٍ لآل البيـت احتفى بمقدمهم من نجـران بعد اغتراب قسريٍّ طويـل حرمهم العـودة إلى اليمن على مواقفهـم المناهضة للثورة السـبتمبرية التي أطاحت بحُكم الأئمة الزيدية، تألَّـف المنزل المتواضع من طابقيْن من الحجارة المربعة، وسقوف خشـبية تتدلى منها أسلاك إنارة بيضاء عشوائية، ثلاث غرف للمعيشـة في الطابق العلوي، وديوان طويل في الأسـفل لضيوف السـيد. في الخارج مزرعة صغيرة وإسطبل خشبي للماشية ومسـجد أصغر لتأدية دور الفقيه، في غمرة التهليل بعودة الأب

ذي اللحية البيضاء القصيرة، لم يكُفّ أهالي القرية عن توزيع المعونات على العائلة الجديدة. أسرة المشـاط أكثرها إخلاصًا وولاءً، وهبوا إليهم ابنهم مهدي لمعاونة ابن رسـول الله في الأعمال الشـاقة، بعد أعوام من ترتيب مداعة السيد النحاسـية وغسـل القات صار مهدي النحيل ذو الأسنان البارزة غُلام آل الحوثـي وأكثرهم ولعًا بصداقـة عبدالملك، كُنّا نخوض معًا نزاعًا دائمًا وسـخيفًا بالأيدي على مَن يلمزه بلقب "الخوثي"، يضعون نقطة على الحاء، نقطة واحدة كانت قذرة بما يكفي لشـحذ قوانا دفاعًا عنه من ألسـنتهم.. في القاموس المحيط وجدّت تعريفًا لعبارة "**الخوثي**" ، إنه الرجل الذي تمتلئ كرشه بالقيح والصديد والدم !

أولئك الأوغاد لم يقرأوا القاموس ، لكنهم يعشقون النميمة.

إنه شـهر تشرين الثاني "نوفمبر" ١٩٨٢، اليوم الذي يعود الأبُ مع أنجاله إلى صعدة بعد عفو رئاسيٍّ سمح لهم بالمجيء مواكبةً لسلسلة قرارات عـزَّزت الوئام الاجتماعـي عقب اندمال حروب السـنوات الطويلة لترسـيخ فكرة النظام الجمهوري، وإزاحة الإمامة شريطة بقاء آخر الأئمة الزيديـين في منفاه الاختياري بالمملكة العربية السـعودية. في منفذ علب الحـدودي اسـتقبلهم موكب طويل لسـيارات القبائل أوصلتهم إلى قرية الرويس بمديرية بني بحر، كان "عبدالملك" طفلًا في الثانية من عُمره، وكنتُ في سِـنه تقريبًا، قالت والدتي إننا ولدنا معًا في عام واحد، غير أني أكبره بشهريْن.

بعد بني بحر بنحو عام واحد، انتقلَـت عائلة بدرالدين الحوثي إلى أرض كبيرة في ضحيـان، حيث كان منزلنا، اشـترى بدرالدين من جدّي قطعة أرض مسـاحتها عشرون لبنة، بنى عليها منزلًا صغيرًا من الطوب. في مساء ٢٧ رمضان، بينما كُنّا نتشـارك إفطارًا واحدًا، عرض جدّي إقامة سـور واحد لكلا المنزليْن على نفقتـه. "بدرالدين الحوثي" نهض من جلوسه وقبّل رأسـه بامتنان. جدّي شـعر أنه رجل مبارك. "حسـين الحوثي" في الجانب المقابـل لوالده من المائـدة، يقضم رِجل دجاجة وعيناه تتابعان بامتعاظ تذلُّل أبيـه، شرب كأس ماء، ثم انزاح بجذعه إلى الـوراء، قائلًا "أكرمكم الله على الإفطـار، وعلى أنه ألهمكم خدمة آل بيت رسـوله الكريم، صلـوات الله عليه وعـلى آله الطيبين الطاهرين". ونهض من فوره.

* * *

- سيُقدمون الغداء قريبًا.. قالها اللواء يحيى المتوكل لضيفه، هز "حسين الحوثي" رأسه ببطء متسائلًا: هل معنا أحد؟
- نعم، سيأتي السيد "أحمد الشـامي" وابنُ أخيه "العقيد يحيى". سيكون لقاءً مثمرًا بإذن الله.

الشــامي الذي أصبح بعد ذلــك وزيرًا للأوقــاف في حكومة الائتلاف الوطني عقب انتخابات ١٩٩٧م، جاء إلى الوزارة في أعقاب هزيمة نكراء لحزب "الحقّ" حرمتهم الفوز بمقعد نيابيٍّ واحد في موازاة خسارة مؤلمة أيضًا للحزب الاشتراكي اليمني في تلك الانتخابات التي خاضها رغم خسارته لنفوذه السياسي والعســكري في الجنوب اليمني على أعقاب حرب صيف ١٩٩٤م، التي أزاحــت الوجوه التاريخية من المشهد اليســاري وخارطة السياســة الوطنية. لكنَّ أمرًا غير منطقيٍّ في سياســة الرئيس علي عبدالله صالح جعلتْه يهوى اللعــب مع الأفاعي الخاسرة، أصدر قرارًا بتعيينه وهو أمين عام حــزب الحق ليتولى حقيبة الأوقاف. في تلك اللحظة ظهر أحمدُ، نجل الوزير يدعو والده لاستقبال الضيفيْن الجديديْن. دخل الشامي بقامته القصيرة المُربعة ضاحكًا، حين رآه حســين الحوثي أقبل عليه محتفيًا. أحمد الشــامي عجوز في السبعين لا يســتبدل رداءه الزيدي العتيق، جُبّة من القماش الأســود المطرز على حوافها بميسم ذهبي، كوفية من القطن الأبيض تُغلِف قاوقًا من القطع الصغيرة الملونة وجنبية معقوفة حول الخصر يقال لها "توزة"، على جانبه الأيمن ابن أخيه بشارب أسود وقامة أطول بقليل من عمّه.

بينما كانــوا يتحلقون حول المائدة، أثار حســين الحوثي ســؤالًا جادًّا: هل ترون كلَّ هذا الفســاد الــذي ينخر اليمــن؟، غمغم البقية بصوت من أعماقهم، عاد حســين يُفسر لنفســه: إنه بقاؤنا على خطط

الاستعمار الجديد والقوى المتكبرة واستكانتنا للظالمين، ومنعنا الجهاد وتحريفه على أيدي الوهابيين والإخوانجية الذين يتلقون عوائد مالية من السعودية لإيقاف مسيرة القرآن وتعطيل حقوقنا وتمييع واجبتنا إلى الشعوب الإسلامية. بدا أحمد الشامي غير مكترثٍ لما يقوله الرجل الريفي المتحمس، اهتمامه بقطع اللحم المكسوة بالقصدير كان الاهتمام الوحيد تلك اللحظة، وبين تجليات الصمت القلق يرفع عينيْه، يحدثه بفم مملوء بالطعام: فعلًا صدقت، استمر، استمر!. نحن هنا نسمع منك أكثر ما تسمع منّا. شعر حسين باجتياح حماسي أكثر لأفكاره، قال: حتى الزيدية اليوم وعلماؤها باتوا يستكينون للظالم وينسون ما قام به سِبطُ رسول الله صلوات الله عليه وعلى آله في مواجهة المتكبرين الظالمين من بني أُميَّة، وكيف أنَّ دمه الطاهر انتصر على السيف الغشوم المُسلط على رقبته، قال كلمة الحق رغم كلِّ التهديد وأماني الترغيب، لكنه لم يحِدْ عن مبدئه ومسيرته القرآنية رافضًا حًكم يزيد –لعنه الله–، وهنا تداخلَت أصوات اللعن منهم جميعًا، ابتلع حسين قطعة خبز غمسها في آنية السلتة الثائرة مثل بركان، نقر عليها بحماس: هل ترون هذه المقلاة؟ إنها مصنوعة من الحجر الصعدي، ورأسي أشبه بها، صلب وعنيد لا تكسره الحرارة ولا يتمدد بها أو ينكمش بالبرودة. علّق نجلُ الوزير ساخرًا: باقي السلتة ياسيدي حسين وأنك مقلى مفيد!. لم يضحك أحد، تبادلوا نظرات حانقة، شعر الوزير بحرج وصرّف ابنه بطلبات أخرى شغلتْه عن الجلوس إلى الضيوف حتى نهاية الغداء.

رنَّ جرس الهاتف الأحمر من زاوية الصالــة، نهض الوزير. رفع السـماعة. علا وجهَه اهتمام جادٌّ، تبادل مع محدِّثه بعـض العبارات ثم أغلق السـماعة وخطى نحو ضيوفه قائلًا: الرئيس يدعوني إلى المقيل في دار الرئاسة. وأردف بسـبابته: "تعالَ معي يا حسين لتقديمك إليه". لم يتردد "حسين الحوثي"، وافق سريعًا.

في موكـب صغـير يرافقه طقم عسـكري من قـوات الأمن المركزي، وعدد محـدود من حراسـة الوزيـر الشـخصية بردائهم الأخضر، وصل اللواء المتوكل إلى دار الرئاسة. فُتحت البوابة الأولى، توقفَت السيارات المرافقة في الباحة المستديرة، وتقدَّمت سيارة الوزير وحيدة في طريق أسفلتي طويل، مرورًا بجامع النهديْن، حتى انتهت إلى فناء مبنى حجريٍّ صغير من طابق واحد، توزع حوله سـتة جنود خاملين تدلت أعقاب بنادقهم على صدورهم، ترجَّل وزير الداخلية وحسين الحوثي وسارا بثبات نحو البوابة الخشـبية. في طريقهما كان الجنود يؤدون التحية العسـكرية للوزير الذي اكتفى بابتسامة مُشعة، في ردهة واسعة مضاءة بمصابيح صفراء ساطعة عُكِس ضوؤها على صلعة شـاب في مقتبل العمر له شـاربٌ كثّ وذقن حليقة. صافحه الوزير ثم التفت إلى حسين مشـيرًا بكفه: هذا حسين الحوثي، عضو مجلس النواب من أبناء صعـدة الباهرين، واسـتطرد موجهًا كلامه إليه: وهذا الرائد طارق محمد عبـدالله صالح، تصافح الاثنان وتبادلا

عبارات المجاملة الرتيبــة، ترافق ثلاثتهم إلى المقيل الواســع، حيث الرئيس عــلي عبدالله صالح جالــسٌ في صدره، أمامــه طاولة فاخرة من خشــب الســنديان، تراكمَت عليهــا كتب مرصوفــة باهتمام لا يوحي أنَّ أحدًا قرأها من قبل!، على بُعــد متكئيْن من الرئيس جلس الشيخُ عبدالله بن حسين الأحمر، في الجانب الأيمن كان الشيخ ناجي الشــايف، ثم الدكتور عبدالكريــم الإرياني، وبجــواره عبدالعزيز عبدالغني، ومحمد ســالم باسندوة، ثم ســالم صالح محمد. كان المقيل مزدحمًا بشخصياتٍ سياسية وأدبية. نادى الرئيس صالح وزير داخليته بصــوت واضح: تعالى يــا متوكل هنــا بجوار صاحبك باســندوة، وأردف قائــلًا: مَن هذا الــذي معك؟ تقدَّم يحيى المتــوكل إلى جوار طاولة الرئيس، انحنى، وقد طوّق صاحبه بذراعه قائلًا: "هذا حسين الحوثي، عضو مجلس النواب عن الدائرة ٢٩٤ في صعدة!"، لم ينهض الرئيس، قال: أها، هذا الذي هزم مرشــح المؤتمر الشعبي العام؟ أومأ حسين برأســه خجلًا مُعلقًا "كلنا مؤتمر يا فخامة الرئيس، تلك أسماء سميتموها". ضحك صالح وهزَّ ذراعه بحماس ثم دعاه إلى الجلوس في مكانه المناسب.

حســين انتبه إلى الشَّــعر الأبيض الذي بدأ يغزو رأس صالح، قضم قليلًا من ورق القات الملفوف بعناية في كيس دعائي لشركة البحر الأحمر للمــوارد المائية، على الجانب الآخر كان "ســالم صالح" يتحدث

بسرعة عن سـنوات الحرب القاتلـة في كانون الثاني ينايـر ١٩٨٦م، لخّص الأحداث المأسـاوية بطريقة جافة وسـكت، سـأله صالح عن مصير عبدالفتاح إسـماعيل الذي مازالت أصداء اختفائه الغريب تنثر مزيدًا من الأسـاطير والتأويلات!، قالت ابنته لمجلة العالم من لندن إنَّ والدها اتصل بها بعد أسـبوعين من اندلاع الصراع العسـكري مؤكدًا أنه بخير، وأنَّ هزيمـة علي ناصر محمد وما تلاها مـن تطورات لتطبيع الوضع حتَّمَت عليه البقاء منشغلًا. سـألتْه ابنته "هل يمكن أنْ يوصي مرافقيه بإحضار كمية قليلة من الخبز وبعض قناني الماء؟، وعدها بذلك ولم يحضر أو يتصل مرة أخرى ولم يصل الماء ولم يروا الخبز. كان "سعيد الجناحي" يردد دومًا أنَّ "فتاح" احترق بداخل دبابة سوفيتيية عتيقة أثناء عبوره من خور مكسر باتجاه المنصورة، وأنَّ قذيفة من الجانب الساحلي أصابت الدبابة وأحرقتها لسـاعات. شـائعة أخرى رددها فتية الحزب الاشتراكي "أشيد" أنَّ عبدالفتاح إسـماعيل تلقّى رصاصة بين عينيْه من مسدس رفيقه علي سـالم البيض، على وقع خلاف صارخ حول طبيعة المعركة العسـكرية. رأي ثالث يحكي مصرعه في مقر المكتب السـياسي للحزب الاشتراكي بمديرية التواهي برصاص "حسان" مسؤول الحماية الجسدية للرئيس المهزوم بعد ذلك علي ناصر محمد.

***

دلف المقيل الرئيس اليمني الأسبق المشير عبدالله السلال مرتديًا فنيلة قطنية وجاكتًا رماديًا من البوليستر، وعلى رأسه كوفية قطنية بيضاء وفي إبطه حُشر كيس صغير من القات، حيّا الرجل ببشاشة وطيبة كلّ الحاضرين، وصافحهم. الدكتور عبدالكريم الإرياني أجلسه إلى جواره، وقد أزاح متكئه ليفسح له مكانًا. الشيخ عبدالله الأحمر أشاد بمواقف السلّال الوطنية، وتذكَّرا معًا أحداث ثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢م، وخلافاتها، عبدالعزيز عبدالغني ابتسم. حسين الحوثي كان يغلي في متكئه. يتمنى لو أنه يبلغ السلال ليقبض روحه!، لكنه اكتفى بابتسامة باهتة لا معنى لها، رفع صالح صوته موجهًا حديثه إلى السلال: أنت الوحيد في اليمن الذي يحمل رتبة المشير؟، ضحك السلال وكانت سكسوكة بيضاء تزين وجهه الأبيض الممتلئ، ثم أردف مجيبًا: لكلِّ زمان دولة ورجال يا فخامة الرئيس. انتابت حسين الحوثي سعلة مفاجئة وثقل سعاله حتى تحول إلى فحيح، ونهض مسرعًا إلى الحماماتِ المرفقة بآخر المقيل للتخلص من السعال المفاجئ، وهناك تخلَّص من القات، شرب ماءً وقليلًا من قناني كندا دراي الغازية، ثم عاد إلى قاته، وقد تبدَّلت أحواله وبدا الاحتقان على وجهه.

بعد ساعات.. أنهى صالح المقيل بإشارة من عصاه الصغيرة، وتفرَّق الجمع وعلى آثارهم خدر القات اللذيذ، هائمين في شوارع صنعاء كلٌّ إلى منزله وأشغاله، كان المساء طاغيًا بليلة غير مُقمرة،

المقاهي الجديدة في شارع حدة ترفع علم الوحدة، أعمدة الإنارة تتوزع في منتصفها صورتـــان للرئيس ونائبــه الجديد القادم مـــن عدن، قطة صغيرة تموء في منتصف الشارع تتجه ببطء حذر إلى برميل نفايات كبير بجوار منزل عبدالملك السياني، افترق حسين بسيارة أحد مرافقي الوزير إلى حيث وقفت ســيارته، اللواء يحيى المتوكل ذهـــب إلى مبنى الوزارة الحجري الضخم لإتمام أعمال اعتاد إنجازها كل مساء..

تحدد موعد الاجتماع القادم في مزرعة الوزيـــر بمديرية عبس – محافظة حجة، في ذلك اللقاء بعد أســبوعين اتفقـــوا على إطلاق منظمة تُدعى الشباب المؤمن تُعنى بعملية "إحياء فكرة الزيدية" مذهبًا ووسيلة في نفوس اليمنيّين الذين لم يدركـــوا آثارها، وقد تراءت لهم كذكرى من زمن أسود وماضٍ متخلف ومريض.

على طول طريق العـــودة إلى منزله في صعدة كان ذهن حســـين مشغولًا بترتيباته المذهبية، اســتعادة الزخم الزيدي الذي صار ضعيفًا في نفوس اليمنيين، تذكر ذلك فغضب، ضرب المقود بيده. ســأل نفسه بصوت مسموع: كيف وصل صالح إلى السلطة؟، هذا القبيلي المتخلف الجاهل يغتصب ســلطة آل البيت ويظهر مغـــرورًا بتحقيق الوحدة؟!، ثم يسترسل في سخط: ليس العيب فيه، بل فينا نحن كورثة لآل البيت وقد تواكلنا عن رؤية الحق وتراخينا في ظلِّ هذا النظام الفاسد، وسعى كلٌّ واحد فينا إلى مصالحه ووظائفه، قبلنا الدنيا عـــلى العليا والمال على

الفـــردوس، وحرصنا عـــلى عيالنـــا ولم نعلمهم معنى الشـــهادة، حتى الرسالة استبدلناها بميثاق وطنيٍّ لتنظيم متآلف من موظفين وسياسيّين انتهازيّـــين لا يفهمـــون في كتب الأمجاد وتـــراث آل البيت، أفســـدتهم مدارسُ علي صالح وأغشـــاهم الانقـــلاب على الأئمة عـــن رؤية مَن يحكمهم من متحذلقين، لا شأن لهم بشيء، ولا سبيل لصلاحهم.

حسين الحوثي تأثَّر من سُـــلطة الرئيس وحراسته وهيلمانه، رددّ تمتماتٍ غاضبة تشبه طقطقة المطر الذي بدأ يتســـاقط بكثافة على زجاج سيارته، وصوت مسّـــاحات التنظيف تكشـــط الماء جيئة وذهابًا، يمينًا ويسارًا، قال في نفسه: أريد أنْ أكون مثل هذه الآلة الديناميكية الرفيعة التي تغســـل الزجاج حتى أرى بوضوحٍ كلَّ شيء، ولن تكون في حوافي قطعة مطاط، بل شفرة حادة، حادة جدًا.

في ١ يوليـــو ٢٠٠٢م، أطلق حســـين الحوثي صرختـــه الجديدة في وجوه أصحابه الذين جمعهم بمســـجد قريته بريف مران الشـــاهق، قال لهم إنَّ الموت لأميركا ســـبيل الخلاص من قوى الاستكبار العالمي، وتساءل: هل تستطيعون ترديدها؟، تلفَّت أنصاره إلى بعضهم ورددوها على اســـتحياء، صاح فيهم: قِفوا وافعلوها، سيرددها الكثير وستجوب أنحاء اليمن كما جابت أنحاء إيران!.

- ٢ -

في حدائق دار الرئاسة، شاهد حسـين الحوثي أزهارًا لم يرَها من قبل، ألوانًـا وأحجامًا، أنواعًا وأصنافًا، يداعب نسـيم صنعاء أكمامها، اقترب من زهرة بلون الدم، عنيفة هذه الزهـرة رغم رقتها، مهيبة رغم بسـاطتها، قطعَها وحملها في أصابعه، بلا رائحة، زمّ شـفتيه، وأدخلها جيبه الخارجي بخفة لصٍّ. اصطفَّت جذوع النخل على مسـار واحد في طريق إسـمنتي متعرج ينتهي على عتبة مبنى مـن طابق واحد، صوت جنديٍّ يصيح، سـيارة جيش تتحرك أمامه ببطء، الفنـاء خالٍ في هذه السـاعة حيث تنتصف الشمس في سـماء الله، دار حول نفسه كراقص باليه، تحسَّس رباط رأسـه، نفض كتفيْه، واسـتدار حيث يقف اللواء يحيى المتوكل بعيدًا في حديث يبدو مهمًا مع الشـيخ مجاهد أبوشـوارب مستشـار الرئيس صالح، وصاحب النفوذ البعثي في اليمن، بعد نصف سـاعة أشـار اللواء المتوكل لحسـين الحوثي، فاقترب، حيّا كلٌّ منهم الآخر، يد أبو شوارب ثقيلة وجافة، هزّه في مصافحته، حدّق في عينيْه، ارتبك حسين مقاومًا حِدّة عيني الشـيخ، لم يرُق له، همس في وجدانه: نعم هي هكذا الأرواح؛ منها يلتقي ومنها يأتلف، ثم همس أيضًا ليُثبت

رؤيته بعبارة قرأها في مكان ما: لا تدع أحدًا يعرف مصدر قوتك، حتى تصير شرسًا، لا تكن غضًا وأحمقَ، لا تندفع للبوح بشيء من أسرارك، عِشْ بين الرماد كجمر، ثم انتفض كتنّين. هذه اللاءات الثلاث كانت محاذيره الأولى نحو تقديم مشروعه إلى الرئيس عليّ عبدالله صالح، كان يرجو إغفالَ صوت السلطة وسطوتها، إغوائها، خداعها، وسيعينه وزير داخلية صالح على ذلك.

في صيف ٢٠٠٢، تحدث يحيى المتوكل إلى صديقه مصطفى نعمان وكيل وزارة الخارجية بداخل سيارة صالون ذهبية على الطريق المؤدي إلى ميدان السبعين قائلًا: هل تعرف مَن هم الناس الأكثر ظلمًا في اليمن؟ أدار مصطفى رأسه قليلًا إلى الجانب الأيسر، استطرد المتوكل بثقة: الهاشميون وأصحاب تعز!. زوى مصطفى حاجبيْه، متبسمًا بلطف: وهل الهاشميون مظلومون؟، هزَّ اللواء المتوكل رأسه بعنف، مضيفًا للتأكيد: وأصحاب تعز. شبَّك مصطفى نعمان كفيْه. وضعهما على شفتيْه، مغمغمًا: ربما. ودار نقاش طويل.

التفت حسين الحوثي إلى المتوكل متسائلًا برفق: يبدو أنَّ الرئيس سيتأخر!، نظر اللواء المتوكل إلى ساعته: سيأتي الآن، ولم يكد يُنهي عبارته حتى لاح لهم مترجم الرئيس محمد صُدام يقترب بخطوات طويلة، الرئيس ينتظركم.

في قاعة الاجتماعات الصغيرة الملحقة بمكتب الرئيس جلس علي عبدالله صالح، على كرسيٍّ أبيض ذي مسند منتفخ، يدور بحركة غير مستقرة، أثارت قلقَ حسين الحوثي، الذي جلس بحذر قبالته، بينما استقر يحيى المتوكل على المقعد الأيمن، سأله الرئيس: ماذا لدى صاحبك يا يحيى؟ شرح المتوكل باقتضاب عن ضروراتِ إحياء المذهب الزيدي في مواجهة حركة "الوهابية السلفية" في صعدة، مضيفًا أنَّ كل المؤشرات تتحدث عن اختراق سعوديٍّ ممول لبنية المجتمع وعقيدته السائدة منذ قرون. هزّ الرئيس رأسه لا مباليًا، حسين الحوثي استئذن بالحديث قائلًا: نستطيع أنْ نجعل هذا المد الوهابي يتراجع أو على الأقل نمنعه من التمدد، بتكوين معسكرات صيفية شبابية لتنظيم اسمه (الشباب المؤمن) في بعض المحافظات لنشر ثقافة "الاعتدال" الزيدية! التي ستقاوم فكرة الإخوان والوهابية. لم يعلِّق صالح، اكتفى بإشارة من يده ليستمر، أضاف يحيى المتوكل أنَّ مثل هذه المعسكرات ستُنشئ توازنًا ذكيًا يستطيع الرئيس أنْ يحافظ عليه وأنْ يبقى رئيسًا للجميع. لمعَت عينا صالح، تناول حبة تمر من آنية فضية، قلَّب صحيفة الثورة، ثم صاح مناديًا بدخول خالد الأكوع. أمره بصرف ٢٠ مليون ريال لدعم التنظيم الجديد، و٧٠٠ ألف ريال أخرى موازنة شهرية لدعم أنشطته الفكرية، تسلَّم حسين الحوثي المال وجمع مبالغَ أخرى من شركة المترب للاتصالات، وغمضان تيليكوم، ويحيى الحباري مالك صوامع الغلال، ثم انطلق مهرولًا إلى صعدة.

في ١٣ يناير ٢٠٠٣، الساعة الثامنة وخمسين دقيقة صباحًا، توقَّف طريق "لحج" على مشهد تحطُّم سيارة صالون لاندكروزر ذهبية اللون انفجر إطارها الأمامي وتدحرجت أمام السائقين بعنف، انبعج سقف السيارة وانغرست قطعٌ حادة منه في رأس وعنق يحيى المتوكل الأمين العام لحزب المؤتمر الشعبي العام، تطايرت مصابيح السيارة الأمامية، وطارت من النوافذ المحطمة ثلاثة أجساد ارتطمت بعنف على حافة الإسفلت، وتوقف دوران السيارة على الطريق الصحراوي مُخلفًا عاصفة من الغبار، هرع مسعفون متطوعون لتفقُّد حالات المصابين، توقفت السيارات على جانبي الطريق المؤدي إلى عدن. سيارة كراسيدا بيضاء مرَّت بهدوء بالقرب من الحطام، أخرج سائقها رأسه ونادى على آخرين صائحًا: أسعفوا المصابين. ومضى، صوت نشيج حاد وسط الحطام، عزالدين المؤذن، ويحيى علي ناصر وصالح مقبل عامر، ثلاثتهم نجوا بأعجوبة من الحادث، الثلاثة الآخرون الذين ارتطموا بالإسفلت: "صالح علي سعد المطري، ومحسن الجبري، ومطهر المتوكل" تهشَّمت رؤوسهم وقضوا على الفور، أُسعِفَ "يحيى المتوكل" إلى مستشفى ابن خلدون القريب من موقع الحادث، وصلت سيارة هايلوكس مسرعة تحملهم، اقتحمت بوابة المشفى، هرع الطبيب المناوب لمعرفة الحالات، ساعده المسعفون بحمل المصابين إلى أسِرَّة متحركة، اندفعت كلها من البوابة الداخلية للمشفى مرورًا بردهة

طويلة، كان سباقًا مبهرًا بين الممرضين، أُعلِن عن وفاة يحيى المتوكل على الفور، لم يكن ثمة أمل في إنقاذه، قال الطبيب إنه وصل ميتًا. أمر الرئيس علي عبدالله صالح نقل الموتى والمصابين على متن طائرة إخلاء طبية إلى العاصمة صنعاء، في صباح اليوم التالي أقيمت جنازة رسمية لأربعة جثامين لُفَّت بعلم الجمهورية اليمنية، وانطلقَت من مركز الدفاع العرضي المجاور لباب اليمن إلى مقبرة الشهداء، تقدَّم الرئيس صالح، ونائبه عبدربه منصور هادي، وعبدالعزيز عبدالغني رئيس مجلس الشورى، وعبدالكريم الإرياني رئيس مجلس الوزراء، والشيخ عبدالله بن حسين الأحمر رئيس مجلس النواب الجنازة، مضوا بها إلى مقبرة الشهداء، تجمهر عشرات الآلاف على جوانب الطريق يشرئبّون بأعناقهم لمشاهدة الرئيس ورجاله، امرأة عجوز علِقَت في الزحام الكثيف، مزَّقت الأجساد المتدافعة كيسَ حاجاتها اليومي، تناثرت تحت أقدام الحشد أربعُ حبات طماطم ومثلها من البصل وثلاثة أصابع موز، صرخت العجوز وجعلت تضربهم بعصاها وكفيْها حتى تنبهوا وأفسحوا لها طريقًا للخروج إلى الرصيف المقابل.

في تلك الليلة، طلب الرئيس علي عبدالله صالح، إعداد برنامج وثائقيٍّ عن حياة المتوكل في بثٍّ مباشر على قناة اليمن الفضائية، في أربعينيته صدر كتاب طبعته دائرة التوجيه المعنوي بالقوات المسلحة يحوي ١٣٠ مقالًا تأبينيًا من مختلف القيادات العليا والأكاديميين، بعد

١٨ شــهرًا ضرب علي عبدالله صالح طاولة اجتماعات طويلة حضرها أعضاء مجلس الدفاع الوطني الأعلى قائــلًا إنه اختار طريق الحرب على "حسين الحوثي"، وأعضاء تنظيمه "الشباب المؤمن".

في صباح اليوم التالي، نشرت صحيفة ٢٦ ســبتمبر الخبر، ولأول مرة قرأ اليمنيون أخبار الحرب البعيدة هناك في أقاصي صعدة على رجل لم يقرأوا عنه شيئًا، شــخص مجهول، يتسرب اسمه إلى كلِّ منزل، وعلى كلِّ شفة، لم يعرفوا بعد أنَّ فكرته العنصرية ستحرق اليمن، وأنَّ الحرب الحقيقية لم تبدأ، وأنَّ كل شيء أحبوه وألفوه سيختفي في بضع سنين.

في منتصف يونيو ٢٠٠٤، استدعى علي عبدالله صالح، صحافيًا بارزًا يدعى "عبدالفتاح الحكيمي" ســأله بحدة عن دعمه لتمرُّد حسين الحوثي المسلح، أجاب الرجل بحلق جافّ أنَّ الدماء التي تُسفك لم تكن مبررة، وأنَّ الســلام يجب أنْ يحل ويغشــى كل مناطق صعدة، وأردف موجهًا كلامه نحو الرئيس الــذي بدا غاضبًا: لم نعــرف في عهدك أيَّ حمامــات دم فلا يلوث "علي محســن" بياض صفحتك، ثُــمَّ يجرك نحو صدام دامٍ يبتغي إدانتــك وتجريم نظامك. غاصت يــد صالح في ركبة الصحافي والتفــت إلى ابن أخيه الجنــرال "عمار " وكيــل جهاز الأمن القومي، "أين الكتاب؟". أسرع عمار إلى الداخل، بعد لحظات عاد، وفي يده كتاب منهــج دراسيٍّ للصف الأول الثانوي، فتــح الرئيس الكتاب وأشــار بيده إلى عبارات كانت محــدَّدة بالقلم الفوسـفوري: اقرأ! قرأ

الحكيمي بصوت مسموع "مَن كنتُ مولاه فهذا عليّ مولاه"، توقَّف على صوت صالح يوضح: هذه عقيدتهم وقد تسامحنا ووضعناها في المنهج الدراسي بإلحاح من أحد مؤلفي هذا الكتاب، وعاد يقلب الصفحات، ثم أشار بأصبعه إلى اسم "ابراهيم الوزير" مؤكدًا: هذا الذي أزعجنا بإضافة ذلك الحديث.

يقول الحكيمي في مقال نشره بعد عامين من إعدام علي عبدالله صالح، إنه أراد تخفيف توتُّر صالح مازحًا أنَّ المعني بقولهم "عليّ" في ذلك الحديث لم يكن عليَّ بن أبي طالب، بل عليَّ عبدالله صالح. لكنه ابتلع قوله في ظلِّ نقاش لم يكن يقبل المزاح.

قبل أنْ تهبَّ نسائم الخريف، تمركزَت جحافل الجيش اليمني بقيادة اللواء علي محسن قائد المنطقة العسكرية الشمالية على تخوم مدينة صعدة، كان الهرج يعمُّ المدينة، القبائل تتوافد ومشايخ القرى يحضرون، في المكتب الصغير، في مساء الأربعاء اجتمع نفرٌ من فقهاء المذهب الزيدي باللواء محسن لمعرفة موقفهم من تمرُّد حسين الحوثي، تجمَّعوا حول طاولة مستديرة بمنزل محافظ صعدة العميد يحيى العمري، ارتدى عليّ محسن قميصًا فاتحًا وإزارًا حضرميًا مزركشًا جاءه هدية من رفيقه اللواء محمد علي محسن قائد المنطقة العسكرية الشرقية من جُملة هدايا منوعة بالثياب والعسل والعود والبخور الحضرمي الثمين، استدار اللواء محسن بوجه محتقن، وجّه سؤالًا حادًّا إلى ضيوفه:

– ماالذي يريده حسين؟ هل يعتقد أنَّ استهداف الجنود الآمنين في نقاط التفتيش سيمرُّ دون عقاب، وأنَّ دعواه المخادعة إلى رفع شعار الصرخة الخمينية والاستيلاء على موارد الدولة في ضحيان ومران أمر سنسكت عنه؟، "صلاح فليته" تلقى السؤال بأعصاب باردة كالجليد، حدّق في الخطوط المتشابكة لشال اللواء عليّ محسن، طوال الأيام والسنين والعقود الماضية كانت صعدة مسرحًا مُطوَقًا لتعاليم الزيدية، أسئلة الجيش اليوم تأخَّرت جدًا، الجيش لا يسأل، بل يحمل السلاح ليقتل الفكرة ويمنع العقيدة ويسجن الأتباع. فليته عجوزٌ سبعينيٌّ، وجه جامد لا يكاد شيء فيه يتحرك، بشرته نحاسية، لولا أنَّ طرفيْه يرمشان لظننت أنه تمثال من الشمع لأبي جهل، مربوع الشكل، أسَّس مع ثُلة من فقهاء المذهب الزيدي في ١٩٩٠ جناحًا سياسيًا أطلقوا عليه اسم "حزب الحق"، كان تعبيرًا منظمًا للنخب الزيدية الموالية لعائلة "حميد الدين" آخر أئمة اليمن الشمالي، اشترط عليّ عبدالله صالح تنازُلَهم عن فكرة الولاية الهاشمية التي تُمثل عصب الزيدية الإمامية وبيئة تكوينها. جاء بيانهم ملتويًا يؤيد "ولاية أي مُسلم" على اليمن، مُرددين ما أشيع عن مؤسس الزيدية الأول "زيد بن عليّ" اعترافه بولاية المفضول في وجود الأفضل.

وزير الخارجية عبدالكريم الإرياني شرح لـ "عليُّ عبدالله صالح" معنى ذلك ، اسند الإرياني مرفقه إلى جذع نخلة باهتة في حديقة دار

الرئاســة ، قال أنَّ "زيدًا أقرَّ بخلافة أبي بكر وعمر وعثمان، كأمر واقع لكنَّ ذلك لم يمنعه من تزكية عليٍّ بن أبي طالب كــخليفة كان مُرجحًا كـ "أفضل" منهم". رئيــس تحرير صحيفة الصحوة اعتــبر ذلك البيان مجرد مهارة لغوية اســتغلتها الزيدية وعبّرت بصمت عن اعتراضها على أول ممارسة شوروية في الإســلام" في السطر الســادس من افتتاحيتها ليوم الخميــس ٢٥ اكتوبر ١٩٩٠ كتبــت "الصحوة" هــذه العبارات "تنافُس أبي بكر وسعد بن عبادة على الخلافة حدث ديمقراطيٌّ في أصله وفكرته وتدافعه، تمنُّع عليٍّ بن أبي طالب عــن مبايعة أبي بكر أيضًا حقٌ ديمقراطي، اعتراضه الأول على نتائج تلــك "الانتخابات" في صورتها البدائية أيضًا تعبير عن حقه الطبيعي كرجل حُرٍّ".

في عدد الأســبوع التالي كتب حارث الشــوكاني مُفسّرًا الجدل الخطير حول المعاني الحقيقيــة لمصطلح "الأفضــل والمفضول" بمقال مستطرد في الصفحة الخامســة على مســاحة الثلثين الآتي : " الزيدية اعتقلت الشــورى، صادرت حقَّ الناس "غير الهاشميين" في الطموح المشروع لقيادة الأمــة. مثّل تمرُّد زيــد بن علي على خلافة هشــام بن عبدالملك أول عصيان مســلح مدعوم فارسيًا على ملك عربي، الفكرة المقدســة لوراثة النبيِّ محمد، صلواتُ الله عليه، مثَّلت هاجسًــا عنيفًا للزيدية التي انقســمت إلى فئتيْن ظاهريًا؛ جناح البترية: الذي أسَّــس نظرية جواز ولايــة المفضول مع وجود الأفضــل، والأفضل في ذلك

يعني الهاشـــمي العلوي الذي ينحدر من نسل الحســـن والحسين ابنَيْ عليٍّ بـــن أبي طالب. الجنـــاح الآخـــر "الجارودية": نســـبة إلى ابن أبي الجارود الذي أطلق نظرية عنصرية تُحرّم ولاية غـــير العلوي على أيِّ أرض إسلامية. في زمن الحاكم غير الهاشمي تتحول الزيدية إلى بترية، بمجرد وصـــول أحدهم إلى الســـلطة يتحولون جميعًـــا إلى جارودية، سُـــلالتهم تتغذى على موارد الناس، وتبدأ علاماتُ تشـــكلهم كطبقة نبلاء تُغلفهم قداسة النسب النبويّ ".

قانون الأحزاب الـــذي صدر عقب ائتـــلاف اليمنيين في دولة واحدة حرّم تشـــكيل الأحزاب على أســـاس مذهبي، أصابع مجهولة أجازت إنشاء الحزب الذي احتال على الديمقراطية الجديدة، ودفعت به منظومة التعدد الســـياسي إلى عمق الحياة السياســـية الوليدة لليمن الموحَّد، "حســـين بدرالدين الحوثـــي" أحد أولئك المؤسســـين، تربيته العنيفة شـــكلت وعيه النامي وطبعتْه بلونها العنـــصري، دفعه حزب الحق إلى انتخابـــات ١٩٩٣ البرلمانية، فاز بأصـــوات الناخبين، لم يقُل لناخبيه إنه لا يؤمن بهذا الهراء، مضى هادئًا بلا ضجيج، ركب سيارته صالون رمادية موديل ١٩٩٠، أشعل محركها، تاركًا صعدة وراءه حتى حين، اعتلى منصة البرلمان وأقسم بالله وأشهده على إيمانه بالديمقراطية وحمايته لجمهورية اليمنيين.

في ٢١ مايــو ١٩٩٤، أذاع بيانه الخطير مؤيدًا إعلان عليّ ســالم البيض المنحدر من أصول هاشــمية انفصال اليمن الجنوبي عن شماله، أســميت تلك المحاولة المســجلة بـ"فكّ الارتباط". أصدر عليٌّ عبدالله صالح على الفــور توجيهاته باعتقال حســين الحوثي، مــزّق حصانته البرلمانية ورمى به في الســجن. علي ســالم البيض هُزم وفرَّ إلى عُمان، في انتخابات ١٩٩٧ البرلمانية حاول حســين الحوثي الترشــح من جديد، لكن عليَّ عبــدالله صالح منعه، تدخــل يحيى المتوكل واقترح ترشــيح شــقيقه يحيى الذي فاز مرشــحًا عن حزب الحق، ثم أعلن انضمامه إلى حزب المؤتمر الشــعبي العامّ، الحزب الذي هزم حليفه السابق "التجمع اليمني للإصلاح" وحصد أغلبية ساحقة أهَّلته للانفراد بالسلطة، انضمَّ آخرون من المســتقلين والإصلاح إلى المؤتمر الشــعبي، البرلمانيون أيضًا مثل رعاياهم يميلون للمنتصر.

شعر الحزب الاشــتراكي الذي كان يمثل دولة الجنوب اليمني، بمرارة الهزيمة، انضمَّ إليهم حزب الإصلاح المُعبر عن التيار الإسلامي عقب طردِه من حكومة صالح، تآلف المهزومــون منذ العام ١٩٦٢ في تيار ســياسي معارض أطلق عليه اللقاء المشــترك، صار "أحمد الشامي" الأمين العام الجديد لحزب "الحق" رئيسًــا دوريًا لهذا التيار الإمامي، لم يُدرك عليّ عبدالله صالح أنَّ خســارته الحزب الذي ســانده منذ نعومة أظافره الرئاسية ســيندفع إلى الثورة في ٢٠١١، وأنَّ الحزب الاشتراكي

الذي أهدى إليه صناعة تاريخ إعـادة الوحدة لم يكن مُسـتعدًا لتلقي الهزيمة العسكرية دون أنْ تجد السـلطة المنتصرة بديلًا فكريًا وعقائديًا يمثل الجنوب، كان المؤتمر والإصلاح تعبيرًا عن حزبية الشمال اليمني، في ظل الفراغ، تشكل تيار غاضب عبّر عن خيبة الأمل الجنوبية لمآلات ما بعد حرب صيف ١٩٩٤، كان عليّ عبـدالله صالح يعيش كملك في صنعاء، موجهًا اهتمامـه إلى بناء مرافق جديـدة في عدن وحضرموت اللتيْن تبدلَت مشاعرهما تجاه صنعاء.

كانـوا -إذَنْ- ألفي شـاب خلاصة ما جمعهم حسـين الحوثي من معسـكراته الصيفية المسـكوت عنها، من ذمار وعمـران وصنعاء وحجّة، ألفا مقاتل جاء بهم إلى صعدة لينفق عليهم من أموال الحكومة ويُدربهم، لم يكن يحتاج سوى بضع سنوات أخرى ليجمع المزيد ويخترق شِعاب القرى بمعسـكراته، يُلقنهم دروسًـا عن الولاء للزيدية وشتم معاوية وتحميل أبي بكـر الصديق كلَّ خطايا الأمة الإسـلامية، لم يكن يريد شـيئًا أكثر من شراء الوقت، الوقت من ذهـب، طموحه المكتوم في الوصول إلى إمامة الزيدية يمنحه سُـلطة إجبارية عـلى بقية العمائم المرتعشة، هو وحده الذي تنطبق عليه شروط الإمامة الرئيسة "أنْ يكون عَلَويًا ذكَرًا"، هو كذلك، يُثبّت صورة منسوخة لشجرة عبّاد الشمس في صدر ديوان دارهم القديم في صعدة، ومثلها نسـخة ملونة على واجهة بهو فيلا اشتراها من رجل أعمال حضرميٍّ ينتمي إلى آل باعلوي خلال

إقامته البرلمانية في العاصمة صنعاء، كُتب على كلِّ أغصان شـجرة عباد الشمس وأوراقها اسمًا لأسـلافه، وفي زهرتها الكبيرة، نُحت اسم النبي محمد صلواتُ الله عليه كجدّ ينتمون إليها نسـبًا. ومـاذا بعد "أنْ يخرج على الناس شـاهرًا سـيفه"؟، لقد اضطر إلى الخروج قبل اكتمال أذرُعه التي يطمئن إليها، وكشـفَت أجهزة الأمن السـياسي خفايـا مؤامرته العنصرية لاسترداد حُكم الإمامة، لكنه خرج، ولم يختبئ وسيرفع سقف التضحية، ويناور حتى يبلغ مأمنه، أو يهلك دون ذلك.

خطط حسـين الحوثي لـكلِّ شيء، لكن الوقت سرقـه، وأنباء المواجهة المسـتعرة تدكُّ أحلامه كسـيف ديموقليس مسلطًا على عنقه، جيوش اللواء عليّ محسـن تعدو مندفعة بولاء شديد الحماسة لإجهاض ثورته المسلحة قبل أوانها، مايزال التنّين صبيًّا في مهده الأسطوري، وهو عالق في جبال مران، في جرف سـلمان، مُتنقلًا بـين هضابها وكهوفها، فيما كشّرت الحكومة عـن أنيابها، وأضاءت تقاريـر المخبرين السريين معالم الطريق للقيادات الأمنية كاشـفة عن أسماء خطرة في مدن أخرى، تعرَّضوا جميعًا للاعتقال والمساءلة العنيفة.

في تلك الأثنـاء، كان نائب البرلمان "بشـار الحـرازي" يضاجع فتاة بيضاء كالحليب، انتظرتْه طويلًا عـلى بوابة مجلس النواب الحديدية الضخمة، سألت عسـكري الخدمة عن نائبها المنشود، رفع العسكري شاشة هاتفه الجوال. شـاهد الساعة: ١٢:٤٨، اسـتدار بشارب رفيع

متدلٍّ إلى يســـار الوجه الغائر، وعين وحيدة: سيخرج بعد قليل. كانت الشـــمس عاتية في أواخر صيف صنعاء، عباءتها السوداء تخفي داخلها لحمًا ناضجًا جفاه النوم وأضناه الأرق وأعياه الحرُّ، شيئًا خرافيًا من تلك التضاريس الناعمة المنقوشة في كتب السيوطي. في الخمس دقائق الأولى لتوكيد العســـكري الأعور، تجاوز النائب المحترم عتبـــة باب البرلمان، نظارة شمسية نوع *Cartier*، جاكتًا بنيًا خفيفًا بخطوط بنفسجية مربعة ومتداخلة، بنطالًا كاكي اللون، حذاءً بُنيًّا لامعًا، ورشاقة شاب ناضج، وعلى ثغره ابتســـامة ثقة، وجهه الأبيض تظهر عليه آثـــار النعمة، عيناه البُنيّتان كلوْن جواربـــه تراقبان العابرين، متجهًا نحـــو فناء مجاور لمبنى البرلمان استخدمتْه السلطات مواقفًا لسيارات النواب الأفاضل.

وقفَت أمامه، فأحسَّ ارتعاشـــة، زغب ذراعيـــه ارتجف، تفصَّد عرق مفاجئ في إبطيه، خفق قلبه سريعًا، وتذكر ذلك الشـــعور اللذيذ الذي ظنَّ أنه تجاوزه، وعاوده فجأة، شعور الفتى المراهق في لقاء صدفة بأنثى تضج فتنة، ينســـى أمامها مَن يكون، يتلعثم، وتصير أقصى رغباته أنْ يأسر قلبها، قالت: أنا بثينة. تمنى لو أنَّ اســـمه جميل، كانت الحكاية ستعود من سطور التاريخ وثنايا العشق وغرام الخيام وضجيج البادية، تتجســـد مثل أيِّ تكرارٍ للحكايا التي يُصرُّ المؤرخون أنها تعود، وتدور، تلف حول رأسه هو. التقط منديلًا مخبَّأً في جيب سترته الداخلي، جفَّف عرقًا خفيفًا تجمّع حول مقدمة رأسه، لم يعد يرى سواها في تلك البقعة،

وذلك الوقـــت، في ذروة الزحام، هو وهي فقط وحيـــدان في منتصف طريق فرعيّ، لم يسمع صوت المارة ، نسي جلبة الباعة الجائلين، وهتاف الناس، تذكر أغنية عبدالحليم حافــظ، إني أغرق، أغرق، إطراقة حليم، مشاعره، انثيال خصلات شــعره الناعم على نصف جبهته. انتزعتْه من بحره اللُجّي، ورمت إليه عبــارة أخرى، أنا ناخبة مــن رعاياك. يااااه، رعاكِ الله، رعاياي أنــا؟، يا إلهي! من أين جاءت هذه الســاخنة لتزيد سخونة الصيف، وتشعل تاريخه وأمسه وغده؟! تلعثم قليلًا.. تفضَّلي، أسبلت جفنيْها بأهداب طويلة غســلت زجاج عينيْه من صدأ السياسة ولعنة الهمّ وألاعيب المصالح، شــعر أنها غمزَت، ســمع صوتًا داخله، صوتها هي، يقول: أريدك على انفراد. انفراد فقط؟، انفردي بي، خذيني أنّى شئتِ، هيت لكِ. أغلقي الأبواب، اســجني نائبك الأعمى، كبِّليه واطرُقي رأســه وصدره بكرباج، دقّي أصابعه، وأفقئي عينيْه. اقليعهما من محجريهما واطفئي في كل مِحجر احتراق سيجار عريض. بينما أزاحتْه بثينة عن الطريق بلمســة من أصبعها على كوع ذراعــه. أحسَّ بالحب. أحب مهنته هذه اللحظة، فوزه القديم قبل عــام لم يكن يعني له الكثيرَ حتى وقف خاشعًا هنا أمامها، ليت كلَّ شيء، كلَّ حركة، كلَّ نملة، كلَّ حيوان، كلَّ طائر، كلَّ سعفة نخيل، كلَّ صوت يتوقف، ويبقى صوتها. ســاقتْه وراءها مثل كلب ودود، يهز ذيله بخطى متسارعة، وعلى ظلال ســور المبنى، اتكأت المعجــزة وفي أصابعها قصاصة ورق. همســت:

إنه رقم هاتفــي، أنتظر اتصالك اليوم الســاعة السادســة في المغرب. واســتدركت: تعرف أنَّ الوضع هذه اللحظة صعب. لم يتحرك، تسمّر مثل خشــبة مُثبتة على جدار مكتبته المرصوفة بكتب لم يقرأها، نسي أنَّ له بيتًا، وعائلة، وأصدقاء، نسي اســمه، وردَّد مبهوتًا: أتصل بكِ أنا؟. أومأت بخفة فطار عبيرها إليه، تنشَّــقه كالذي يكتشــف عطرًا للمرة الأولى، ظنَّ أنه دخل آلة الزمن مســافرًا حيث يدور الكون حولها، في هذه اللحظة، في هذا الموقف، من العصر الجيوراسي جاء ليشتم عطرها فقط، ثم يعود إلى زمنه يُقسم أنه رأى شيئًا يشــبه النساء وليس بامرأة، كائنًا أسود في وسطه لؤلؤة متوهجة، ليس في كلِّ المحار لآلئ، فلا لؤلؤة إلا بثينة، ولا ابن كلب إلا هو.

رنين الهاتف يضجُّ بصوت كالفحيح. دار رأس "بشار الحرازي" حنقًا إلى طاولة بيضاء مُثبتة على سريره العريض، متأســفًا قال: هل هذا وقته؟، اقترب ليقرأ الاسم الظاهر على شاشة الجوال، انتفض كالملدوغ وهبّ عاريًا على قدميْه ويده في الهواء تلتقط الهاتف، انتظر لحظات حتى هدأت أنفاسه، أعاد ترتيب شَعر رأسه، كأنَّ الذي يهاتفه يراه، نسي أنه لم يكن يرتدي شيئًا سوى جِلده، ارتبكت "بثينة" لوثبته السريعة واهتزت أردافهــا لانقطاع وصلهما الحميــم، انطفاء التيار بقذيفــة متصل انتزع عشــيقها من بين ذراعيْها المكتنزتين، حاولت أنْ تسأل: من هو؟، أشار بسبابته أنْ تصمت، وضغط على زر الإجابة : أهلًا فخامة الرئيس.

قال "علي عبدالله صالح" إنَّ "حسـين الحوثي" مدعوم من إيران وحزب الله في لبنان، كان "بشـار الحرازي" يمشـط غرفته ذهابًا إيابًا، منصتًـا، وصوت الرئيس يعلـو بوضوح من سـماعة الهاتف، التقطت "بثينة" ورقة صفراء من دفتر ملون مخصص للملاحظات في درج السرير الخلفي وكتبت: أرجـوك حبيبي افتح مكبر الصوت لأسـمع صوت الرئيس. اقتربَت منه ووضعَت أمام عينيْه الورقة الصغيرة، كانت تتقافز وتنثني، تدور حول نفسها كراقصة بالية. شـعرها يطير مبعثرًا ثم يعود إلى سيرته الأولى منسـدلًا إلى آخر الجذع المنثني على مؤخرة وردية نافرة بزغب أشـقر ناعم يتصل بأرداف طازجة تقف على سـاقيْن لامعتيْن. في الجزء الأعلى يهتز نهدان كموج في غادية المـد وعادية الجزر، ما يبرح أحدهما أنْ يصطدم بسـاحل صدرهـا الذهبي حتى يعـود الآخر إلى الموج في مغامـرة لاتتوقف، ملامحها تشي برجاء عـارم، اعتصر النائب المحترم حلمة نهدها الأيسر، ندت منها آهة خفيضة، وتبسَّمت في غنج لا يقاوم، لبّى النائب العاري رجـاء عاريته وجاء صوت صالح " تخيل أنَّ يحيى المتوكل -ابن الحيزبون- هو أول المتحمسـين لدعم هذا السيد المعتوه، وجاءني إلى دار الرئاسة وجلسـنا وتعهَّد لي شخصيًا أنَّ صاحبه لا يريد سـوى إيقاف المد الوهابي، لم يعجبه السـلفيون الذين يؤمنون بطاعة وليِّ الأمر، وورطني بأناس لا يعقلون ولا يفكرون، كل أمنيتهم وطموحهم، متى يأتي سـيد هاشـمي يحكمهم، لم يعجبهم علي عبدالله صالح لأنه يمني من سنحان". توقف صالح لهنيهة، ثم عاد صوته أكثر

حنقًا وحِدّة "وأنت يا بشـــار المجنون، قُلنا إنك عاقل، لكن أنا أعلم مَن يؤثر عليك ويجعلك تقف مع هذا الســـيد، أنتم كلكم مجانين"، ضحك بشـــار الحرازي بعصبية وكأنه لم يشـــأ أنْ يتعرض لهذه اللغة المؤنِّبة على مســـامع محبوبته الأثيرة، مُعلقًا "وما شـــأني أنا؟، لا يجوز أنْ يســـتعصي عليكم حســـين الحوثي فأكون أنا المُلام، نحن يا فخامـــة الرئيس نقول فقط إنَّ من حقِّ حســـين الحوثي التعبير عن رأيه، هـــذا ما تضمنه بيان أحزاب المعارضة الممثلة في مجلس النـــواب"، ارتفع صوت الرئيس علي عبدالله صالح بقوة: "ألم أقل لك أنا أعلم مَـــن يؤثر عليك؟، اترك حميد الأحمر وأفكاره، إنه مجنون آخر مثل الســـيد حامل عُقدة الشيخ"، ابتلع صالح شـــيئًا في فمه، وختم حديثه بحسم: "اســـمعها مني، لن ينالوها بعد صالـــح، ومن عاش خبّر". أغلـــق الرئيس ســـماعة الهاتف بعنف، بصوت كصفعة اهتز لها النائب المحترم وارتعشت أصابعه للحظة، رمى هاتفه على جانب السرير المُدثر بعباءة قطنيـــة بيضاء، هديل حمامة تصل عشـــها في كوة الغرفة المفتوحة إلى الخارج، بوق سيارة قديم يطلق نفيره الأقصى، وعجلات تزأر مكابحها، ثم ارتطام مُدوٍّ. هرج بعيد، أصوات تعلو وتخفت. شـــتائم، وشـــتائم متبادلة. احتضن نائـــب البرلمان الذي ســـيصبح عميلًا عضويًا لإيران رأس حبيبته وضمّها بشدة إلى صدرها وهي هاجعة في حضنه مثل عود قصب ندي ينتز ماءً من مسامِّه الرفيعة، علّق بضجر: هذا مجنون، يعتقد أنَّ الناس ستصدق خبابيره السخيفة!. ثم اعتصر بثينته في صدره أكثر، وأكثر. وأكثر.

- ٣ -

خلف مران الجبـــل، مران النـــاس والطبيعة، مـــران الحقول والرمان، في باطن الجبل الأســـود، بداخل جرف ســـلمان، في ظهيرة ١٠ سبتمبر ٢٠٠٤ تحصَّن حسين الحوثي وراء أجساد آخر عناصره، مَن بقى من ألفَي عنصر خسروا أرواحهم في ســـبيله، أمسك الرجل الخائب هاتفه "الثريا"، نقر بأظافر متســـخة على رقم أخير، في الجانب الأيمن من الجبل، تلقى فهد دهشـــوش اتصالًا، رفـــع هاتفه، الرقم محجوب. جاءه صوتُ حســـين الحوثي واهنًا، ضعيفًا ومنكسرًا، قال إنه جاهز لتسليم نفســـه إليه فقط. اســـتطرد متضرعًا "أنا في وجهك ياشيخ فهد". تلك كانت النهاية المسلحة لحرب الأربعة أشهر المريرة، تمنى حسين أنْ يحفظ رأسه سالمًا بين كتفيْه ليعاود الحرب في نهار آخر، في سنة أخرى، من مكان آخر، سيختفي، ثم يظهر بحزمة أخرى من عشرات آلاف أكثر بأسًا وخبرة وشراســـة من أولئك الذين هزمتهم آلة الجيش اليمني الغاضب.

"فهد دهشـــوش" الذي اقتحم منزلًا اســـتغله حســـين الحوثي للتخفي خلال المعركة، انشـــغل بنقل طفل صغير وجده وحيدًا وخائفًا

في البهو ومعه بضع نســاء قُلن إنهنَّ نســاء زعيم الحوثيــين، وإنَّ ذلك الطفل الشاحب طفله واســمه "عبدالله"، تعهَّد "دهشوش" قائد اللجان الشــعبية الميدانية التي انضمت في حملة تطهير لمواقع المتمردين بسلامة وأمن جميع مَن في عُهدتــه، اندفع خارجًا وعلى ذراعيــه جلس الطفل الصغير مبهوتًا لمــرأى كل أولئــك الرجال الذين ظهــروا فجأة وعلى أكتافهم تتدلى أســلحة متنوعة، وفي خواصرهم مآزر صحراوية تحمل جيوبًا منتفخة بالقنابل وخزائن الرصاص. أنزل "فهد دهشوش" الطفل أرضًا. جلس القرفصاء، موجهًا أمرًا لمرافقه بالتقاط صورة لهما، ابتســم الطفل وابتسم فهد.

في الأيــام الأخــيرة لــعام ٢٠١٧، اقتحــم شــابٌّ في أوائل العشرينات من عمره بلحية خفيفة منزلًا مــن طابقيْن على رأس هضبة صغيرة في قريــة الجميمــة بمحافظة حجّــة. تنقّل الشــاب بخفة بين مجموعات من عناصر تابعة له انتشرت في الداخل كانت منهمكة بزرع متفجــرات صنعها خبراء إيرانيــون على زوايا معينــة حددها مهندس المجموعة المســلحة. بدوره اطمأنَّ "عبدالله حســين الحوثي" إلى نهب آخر قطع الأثاث وثريات الســقوف وبعض التماثيل الأثرية النادرة من حُجرات المنزل، رأس فتاة من المرمر كُتب على قاعدتها بحروف مسندية يمنية، تمثال بحجم الكف من البرونز اللامــع لمحارب يمني ضمّ كفيه إلى صدره، وفي رأســه عقصات شــعر ملتوٍ كتلك التــي قلّدها أباطرة

الرومان ولم تزل تقليــدًا عصريًا لقضاة إنجلترا، لوحــة زيتية متداخلة لمنازل وصوامع صنعاء باللونين الأحمر والاصفر رســمها هاشم علي، صناديق أسلحة زيتية، خزانة مغلقة من الفولاذ. سُحبت المنهوبات على متن أربع شاحنات ضخمة، غادرت باتجاه صعدة.

في الحقل السُفلي، على بُعد عشرين مترًا تراجع ابن حسين الحوثي الذي تولى شؤون الشرطة في وزارة الداخلية نحو سور المبنى الخفيض، رفع ذراعه إلى أعلى، رفعها بقوة، بحــماس وانفعال، صرخ: الله أكبر!، انفجر اللغم الأول، صرخ: الموت لأميركا، انفجر اللغم الثاني، صرخ: اللعنة عــلى اليهود، اللغم الثالث أحدث هزة شَــعر بهــا تحت أقدامه، صرخ: المــوت لإسرائيل، ثارت عاصفــة غبار ضخمــة أخفت معالم المنزل، صرخ: النصر للإسلام!، انهار المبنى بانفجار آخر الألغام.

وثّق شاب أصفر الوجه يلف رأسه الأشعث بعصابة خضراء كُتب عليها بلون أبيض "لبيك ياحسين" مشــاهد التفجير. في المساء نقلت قناة المســيرة من الضاحية الجنوبية ببيروت صورًا حصرية لما قالت إنه تفجير لمنزل المنافق "فهد دهشوش" الذي شارك في فتنة ٢ ديسمبر ٢٠١٧.

تخطّى "فهد دهشوش" بقامته القصيرة الممتلئة وجلادته على الحرب بضع صخور كبــيرة في الجبل الغارق بالعويل والــدم، قفز من صخرة إلى أخرى، قادمًا باتجاه جرف ســلمان، رأســه مضطرب بعشرات الأســئلة، ماالذي سيقوله الرئيس؟ كيف سيحمي حسين الحوثي وسط كثافة الجنود

الغاضبين عــلى زملائهم القتــلى؟، لا يملك قوة كافية مــن الرجال لردع أيِّ رصاصة ثائرة من جندي وقف شــاهدًا وباكيًا آخر لحظات انحســار روح زميله، شــقيق الســلاح وتوأم الجندية. عاطفة الجنود تجاه بعضهم، بذلهم أرواحهم. تضحيتهم، شــجاعتهم تســاوي قداســة هائلة. التقط فهد دهشــوش جهازه اللاســلكي وضبطه على موجــة عمليات الجيش، ردَّد عبارة: يا ليث واحــد، حوّل! جاءه الرد: معك ليــث واحد، تكلم!، توقف على ناصية عمــود معدني طويل تتدلى منه بقايا خرقة قماشــية ممزقة لشعار الحوثيين ذي اللونيْن الأحمر والأخضر، قال: أريد اللواء عليّ محسن للأهمية. جاءه صوت جندي الاتصالات: عُلم. زوى دهشــوش حاجبيْه، أعاد الجهاز إلى خاصرته، تلفت يمينًا ويســارًا، نظر إلى أعلى، أشــار بكفه اليــسرى إلى رجاله الذين توقفــوا معه، وعادوا جميعًا لخــوض مغامرتهم المنســية مع جبال مران بأظافر العدم. بلــغ كهفًا تحيط مدخلــه كتلٌ من التراب، انتشر رجاله شــاهرين أســلحتهم في وجه عدو محتمل. جثة فتى لم يبلغ العشرين ربيعًا مزقتها أعيرة ناريــة، تذوق الجبل الصخري نزفًا من دمه، وتدلى رأســه كقنديل على صدرٍ هزيل تقفز ضلوعه كقضبان سجن كان قلبه أسيرها، انفرجت رجلاه في جلوس أســند ظهره إلى الجبل، ظنَّ الفتى أنَّ الصخر يحميه من غارة طائرات الأباتشي، جلس بانتظار الوهم، وبجواره ســقطت بندقيته الكلاشــينكوف، وتبعثــرت دروس مطبوعة لحسين الحوثي يبدو أنها كانت قوته الأخير في حياة خدعها الزيف.

صعدة التي لم يزُرها المعلمون طوال عقود الجمهورية الخمسة، كانت تعيش لحظات افتراسٍ نهِم، ذئاب الإمامة نشرت تعليمًا باطنيًا لأطفال القرى وزوّدت الأرياف الصمّاء بكتب الزيدية، واضعة قداسة بيوتات قليلة من العائلات الهاشمية في صدارة الاهتمام المبارك. خسرت الجمهورية رجولة فتية كانوا بحاجة إلى جامعة واحدة فقط، ونادٍ رياضي، ومدارس نظيفة، واهتمام حكومي بالوظيفة وحاجات الجيل الناشئ من الثقافة والوعي. ولما تذكرت الحكومة أنَّ لها محافظة اسمها صعدة كان حسين الحوثي قد ارتوى من عقول فتيتها، نال من وعي عديدٍ من مشايخها، وصارت عائلة أبيه جزءًا من كرامة القبيلة التي شعرت أنَّ الجيش زارها دون إذْن مسبق، انقسمت صعدة التي خسرت ألفَيْ شابٍّ من مختلف أرجائها، وفي لحظة أخيرة لدنو نهاية المعركة كانت وحدة من أفراد الجيش تُطوق جرف سلمان، بينما ضلّ فهد دهشوش طريقه في تعرجات جبل ضخم، حين جاءه ردُّ غرفة العمليات بانتظار ربطه بقائد القوات الميدانية اللواء عليّ محسن، كان حسين الحوثي في قبضة رجال القوات المسلحة. طار الخبر إلى الرئيس عليّ عبدالله صالح، دخل ابن شقيقه يحيى غرفته الخاصة في منزله الريفي بقرية سنحان، وأعلمه الخبر، كان صالح في حضور أقاربه لعرس نجل أخيه من أمه "محمد صالح الأحمر"، عُرس محدود اعتاد صالح ألّا يدعو في أفراح ذويه مسؤولي الدولة، يكتفي بأهل قريته فقط. في

تلك اللحظات كان العميد ثابت مثنى جواس يُصوّب فوهة مسدسه الشخصي إلى وجه زعيم التمرد، حسين الحوثي كان يترقب بلهفة ظهور فهد دهشوش، أجبرته النيرانُ التي أشعلها جنود مُدربون من قوات الجيش الخاصة عبر أنابيب ضُخت إليها كميات من البنزين إلى خروجه بهيئة مزرية، وجهٌ كالح، نمت شعيراتُ ذقنه كمتشرد. أطبق الجنود حصارهم الخانق عليه في الجرف منذ أيام، وعمدوا لإطلاق وابل من الرصاص كلَّ نصف ساعة صوب ملاذ عدوهم الأخير، أرادوا إرهاق مَن بقي إلى جواره، وإفراغ ما بحوزتهم من ذخيرة حية. ألقت القوات العسكرية عشرات القنابل مسيلة الدموع، ومواجهة آخر فتية تنظيم الشباب المؤمن الذين تناوبوا على حراسة سيدهم بالقنابل المتفجرة، قُتل عشرة منهم، وعبثًا حاول الجيش عبر مكبرات الصوت إثناء حسين الحوثي عن إراقة الدم في معركة كانت نهايتها واضحة، يجب أنْ يستسلم أو يُقتل، كانت مواجهة مميتة. استنفدَت مؤنة المتمردين من الماء، هوى ثلاثة منهم إلى حفرة أسفل الجبل على وقع انفجار دقيق لقنبلة أطاحت بهم ودفنتهم تحت كثافة متساقطة من الصخر، وحشية دامية بين طرفيْن لم يعُد ممكنًا تأخير حسم نهايتها. أخيرًا خرج المطلوب الأول للحكومة اليمنية، حوله بعض أطفاله وثلاث نساء، خرج مع سقوط آخر حُراسه، حمله الجنود بين أذرعهم، اقتادوه حيث يقف ثابت مثنى جواس. نشرت صحيفة صوت الشورى في نوفمبر ٢٠٠٤ تفاصيل

اللحظات الأخيرة – لم تنفِها الحكومة –، قالت إنَّ العميد جوّاس تبادل مع حسين الحوثي حديثًا قصيرًا وحادًا، انتهى بتأكيد الحوثي خروجه من السجن الذي ينتظره ونيله عفو الرئيس علي عبدالله صالح. كان العميد جوّاس يعرف أنَّ صالح سيفعلها، فقد عفى عنه قبل عشر سنوات في حرب صيف ١٩٩٤، حين أشعل حربًا بداخل مدينة ذمار وأطلق آلاف القذائف وصواريخ الكاتيوشا على معسكري الأمن المركزي والحرس الجمهوري من منصات حربية كانت مُجهزة بمخازن معسكر باصهيب لاجتياح المدينة، وإرغام القوات الأخرى على الفرار واحراز النصر لصالح الحزب الاشتراكي اليمني. يتذكر جوّاس أنه خسر المعركة وفرَّ بسيارة فولكس واجن في شعاب مديرية عنس، حيث كان هدفًا لقبائلها التي حاصرته وأجبرته على الاستسلام، واقتادته ذليلًا إلى سجن القوات الخاصة، احتُجز هناك لمدة سبعين يومًا، ثم خرج بعفو رئاسي مع انتهاء الحرب، وسيطرة قوات عليّ عبدالله صالح على عدن.

مسح حسين الحوثي بباطن ذراعه خيطًا رفيعًا من الدم، كان يسيل من جبهته، واكتفى بالتحديق في شارب عدوه الضخم، اهتزَّ كرش العميد ثابت جوّاس لسخرية حسين الحوثي، شعر بمرارة كلماته، سرت في حلقه حرارة قيء قلوي، بصق في الهواء وأمر جنديه الذي كان يحمل على ظهره جهاز اتصال ميداني إبلاغ غرفة العمليات بخبر القبض على حسين الحوثي حيًا، بعد لحظات جاءه الأمر العسكري:

- اقتله!

عبارة واحـــدة كان ينتظرها ليتخلـــص من هزيمـــة معنوية أمام عدوه الذي أثخن في ضباط وحدته الأذى جرحًا وتقتيلًا. ســـمع حسين الحوثي صوت ضابط الاتصال ينقل الأمر إلى العميد جوّاس، أدار عينيْه في الأرجاء بحثًا عن رجل ينتظره، لكنه لم يرَ أحـــدًا، ولم يكن حظه تلك اللحظة مناســـبًا ليترفق به، ويدفع عنه حتمية الموت وقـــدر النهاية التي رسمها لنفسه مع أول رصاصة أطلقها على الجنود الآمنين في نقطة تفتيش بضواحي قريته وقت أذان المغرب، كان موعده الأخير مع فوهة مسدس بارد، وســـيلة مميتة اختارها كســـبيل قاتل يُبلغ حُجته ويُبرير عدوانه على الشعب والنظام، كان عليه أنْ يرضى بما اختاره، وأنْ يذوق طعم الدم في حنجرته، كما فعل بآلاف ممَّن قتلهم هو ورجالـــه. حدّق في عينَي العميد ثابت جواس، كانتا حمراويْن قانيتيْن ملتهبتيْن. سمع حسين الحوثي للمرة الأولى والأخيرة صوت رصاصة نحاســـية في داخله، اخترقت منتصف وجهه بالقرب من أنفه على الجهة اليسرى، انقضَّت الرصاصة على عظمة الرأس وحملت في اندفاعتها السريعة جزءًا من مخ الرجل،كسرت مؤخرة الجمجمة، ودرات الرصاصة حول نفســـها وســـط الحـــصى وفتات المخ وبقعة ساخنة من الدم. وقف العميد ثابت جواس صامتًا لبرهة، تحسَّس بإصبعه سخونة فوهة المسدس الذي قتل لتوِّه رجلًا مميتًا، أغمض عينيْه، مسح وجهه بباطن كفيه، رفع ذراعه إلى أعلى، هتفوا جميعًا "الله أكبر"!.

في الجانب الآخر من الجبل، سمع فهد دهشوش صوت رصاصة شــقَّت الصمت المريب وتردَّد صداها في فراغ كئيب، شــعر بانقباض صدره، والتفت إلى مرافقه قائلًا: هــذه في رأس عاصي والديْه، ثم تنهَّد متحسرًا: ليته تركنا وتركناه، كان دهشوش ذو الخامسة والأربعين عامًا يُدرك أنَّ تلك الرصاصة لن تكون نهاية رحلة الدم، بل كانت البداية... بداية الموت.

بعد عشرة أيام، في ليلة رطبة، توقفت ســيارة هايلوكس بيضاء عارية من أرقامها بالقرب من منزل ريفيٍّ في الطرف الشمالي لقرية النقعة الحدودية، وعلى مســافة غير بعيدة شرقًا كان "عبدالله عيضه الرزامي" يخوض سباقًا مع الحياة مخترقًا الوادي الفســيح الفاصل بين الرزامات والنقعة، وصوت ثقيل يعلن مــن إذاعة صنعاء على الموجة المتوســطة تقدُّم الجيش اليمني باتجاه منطقة الرزامات لتصفية "آخر أوكار العصابة الحوثية"، أغلــق الرزامي مذياع ســيارته بعصبية، فتل شــاربه الكث الذي يجعله شــبيهًا ببطل المصارعة العالمي هوقن، لو لم يختَره المواطنون في دائرته ليمثلهم في مجلــس برلمان ١٩٩٣ لربما اختــار المصارعة مهنة للعيش، كان عنيفًا بطبعــه، العنف الظاهري يكشــف حقيقة رجل لا يتحلى بالشجاعة، العنيف يقتنص ضحاياه من العُزل والضعفاء. تعرَّف للمرة الأولى إلى حســين الحوثي في مقيل بمنطقة رازح قبل لحظته هذه بعشر ســنين، دخل المقيل بهوية يمنيٍّ بلا مؤهل، وخرج عند الغروب

بصفة جديدة "خـــادم"، كان يفاخر في رســـائله التي يُذيلها إلى ســـيده بعبوديته المطلقة لابن رسول الله!، صاحت عجلات سيارته لاندكروزر قبل وقوفها الاضطراري أمام نقطـــة تفتيش مفاجئة للجيش، وضع كلَّ ثقله وعنفه على ســـاقه اليمنى ودفع رجله للضغط على دواسة المكابح، صوت مرعب كاستغاثة امرأة من الجنِّ، شاهد من وراء زجاج سيارته، من خلف المقود جنودًا مضطربين يُشـــهرون ســـلاحهم في وجهه، كان خائفًا، أثار توقفه المفاجئ استفزاز الجنود، دارت فوهة رشاش منتصب على قاعدة خلفية لعربة عسكرية باتجاهه، بدا له أنَّ رصاصات ١٢ – ٧ ســـتمزقه خلال لحظات، تمنى لو أنه يموت برصاصة مسدس، أغمض عينيْه، كان حلقه جافًا، أصدر صوتًا يشبه الفحيح، رفع ذراعه اليسرى من وراء زجاج الباب الأيسر يُحذرهم. الجنود المســـتنفرون أحاطوا به، ترجَّل عن سيارته، وقرَّر تسليم نفســـه. أعلن موقع ٢٦ سبتمبر التابع للقوات المسلحة أنَّ صيدًا ثمينًا أُلقي القبض عليه في الرزامات.

في ٢٣ يونيو ٢٠٠٥، ســـلّم عبـــدالله عيضة الرزامي نفســـه مرة أخرى إلى الســـلطات في صنعاء بعد مفاوضات قادتها قيادات قبلية، في مارس ٢٠٠٦ طار عضو مجلس النواب أحمد الكحلاني على متن طائرة انتينوف روسية الصنع من قاعدة الديلمي الجوية بصنعاء إلى مطار عدن حاملًا قرار الرئيس بتعيينه محافظًا جديـــدًا. وفقًا للقانون كان يجب على الناخبين في الدائرة الخامسة بأمانة العاصمة التوجه إلى صناديق الاقتراع

لانتخاب عضو مجلس نواب جديد، انتظروا طويــلًا لكن اللجنة العليا للانتخابات لم تُعلن عن شــغور مقعد النائب الكحــلاني، كان في مهمة تغذية التيار الجنوبي الغاضب، تلك أعقَدُ مراحل المؤامرة التي عبث فيها رجال صالح الهاشــميين بأخطر الملفات لزعزعة اســتقرار الجمهورية، في تلك الأثنــاء كانت الجولة الثالثة لحرب صعــدة تحصد ضحاياها من الطرفــيْن. مابين العــام ٢٠٠٤ إلى ٢٠١٠ خاض الجيش اليمني ســتَّ جولاتٍ عنيفة مع الحوثيين الذيــن ازداد تحصُّنهم في جبال مران صلابة وشراسة على غير ما خبرته الحكومة وواجهته في حربها الأولى. العائلات التي خسرت أبناءها، قررت تقديم آخرين لمواجهة اللواء "عليّ محسن"، الصحــف في صنعاء كانت تصفه كممثل للتيار الإســلامي السُــني في الجيش، وقد أسهمت تنشئته تلك على قيادة حرب "مذهبية" على الزيدية وفقهائها، علي عبدالله صالح اســتحلى الهجوم على رفيق طفولته، فأناخ للكتبة البعير، شجعت قصص التضحية التي طافت أرجاء صعدة فتيتها لدخول الحرب، كانــت تلك الحرفة الأقصر للعيــش. الأصدقاء الذين فقدوا رفاقهم تشجعوا أيضًا لمواجهة "قوى الاستكبار"!.

في ذلك البيــت الريفي بقرية النقعة، طــرق "صالح الصماد" بابًا خشبيًّا سميكًا، عبر من ممر قصير باتجاه غرفة على الجانب الأيمن سُدّت نوافذها بقطع حديد صلب، كان عبدالملك الحوثي جالسًــا على كرسيٍّ حديدي صغير، مُســندًا مرفقيْه إلى طاولة خشــبية مســتطيلة، منهمكًا

بقراءة خطاب بخطِّ اليد عـلى ورق منزوع من دفـتر مدرسيٍّ يتضمن توجيهات وملاحظات سـابقة من شـقيقه حسـين، تصافَحا، واتخذ الصماد مقعدًا مجـاورًا لصديقه، دار بينهما نقاش طويل، أقسـم الاثنان على السير في مهمة إشـعال تمرُّد جديد. وفي مسـاء اليوم التالي، التقى عبدالملك الحوثي في فناء نادي السلام الرياضي بالنقعة مئاتٍ من أتباعه لمبايعته خلفًا لشـقيقه، خسر يحيى بدرالدين الحوثـي بيعة رفاق الموت حين قرر الفرار إلى ألمانيـا، ألقى عبدالملك الحوثـي خطابًا قصيرًا على الحاضرين، كُنت أسـند ظهري إلى جدار النادي متأملًا حشد المبايعين، بريق عنيد تملؤه حماسـة القتـال في أعينهم، لقد كان الأمـر مختلفًا هذه المرة، استجابت رئاسة الجمهورية لمطالب السلام، وقررت نقل المحافظ يحيى العمري إلى البيضاء، وتعيين العميد يحيى الشـامي محافظًا جديدًا على صعدة. عقب انتهـاء الحرب الثانية، خطط الشـامي مع عبدالملك الحوثي لحشـد ناخبي صعـدة والإدلاء بأصواتهم لصالـح الرئيس في انتخابات سـبتمبر ٢٠٠٦، وتأمين المنطقة اسـتعدادًا لاستقباله، يحيى الشـامي قال لعبدالملك: نحتاج وقتًا ونحتاج تكتيكًا يقنع علي عبدالله صالح أنكم حلفاء لا خصـوم، كان عبدالملك بحاجة إلى خُدعة كهذه، تعزيز انطباع يفاقم الخلافات بين أجنحة الحكـم التقليدي في صنعاء، المعركتان الأولى والثانية لم تكونا لتندلعا لولا سوء قيادة السلطة المحلية "السابقة" وتوجهات اللواء علي محسن "المذهبية"، نجحَت الحيلة وخرج

علي عبدالله صالح بانطباع المنتصر، حصد رقمًا قياسيًا في صناديق صعدة مقارنة بمنافســه في الانتخابات الرئاسية فيصل بن شملان الذي حظي بدعم مباشر من تيــار اللقاء المشــترك المعارض، ومن قيــادات قبلية ترجّلت عن موكب الرئيس.

اندلعت الحرب الرابعة في يناير ٢٠٠٧، كنتُ مسؤولًا عن لجان الدعم والإغاثة في مديرية سحار، تدخَّلَت دولة قطر، وصل الأمير حمد بن خليفة إلى مطار صنعاء، التقى بعلي عبدالله صالح في الجناح الرئاسي بالمطار، اتفق الجانبان على التهدئــة، وعلى الفور أعلن عبدالملك الحوثي قبوله بالشروط القطرية.

اندلعت الحرب الخامسة في مارس ٢٠٠٨، بعد ثلاثة أشهر أعلن علي عبدالله صالح وقفَ إطلاق النار، وقبوله الوساطة القبلية.

اندلعت الحرب السادسة في اغسطس ٢٠٠٩، هذه المرة أعلنت القوات السعودية أنها ســتخوض معركة مع الرئيس علي عبدالله صالح للتدخل العسكري، ومساندة القوات المسلحة اليمنية في حربها الشرسة على الحوثيين، أعلن التلفزيون اليمنــي أنها الحرب الأخيرة، لن تتوقف الآلة العســكرية عن تطهير جيوب المتمردين، طُــرد الحوثيين من ٤٦ منطقة محتلــة داخل الأراضي الســعودية، علي عبــدالله صالح لم يخُضْ معركة حقيقية في الداخل، إضعاف معسكرات اللواء علي محسن الأحمر ســتمنح قوات الحرس الجمهوري التي يقودها نجلُه الأكبر نقطة تفوُّق

في مواجهة تحركات المعارضة السياســية التي انسحبت من المشاركة في أيٍّ انتخابات تقيمها الحكومة مالم تســتجب الســلطة لشروطها. كان "محمــد عبدالملك المتوكل" يكتــب تلك الشروط ويضعهــا على طاولة الاجتماع الدوري لأحزاب اللقاء المشــترك، بدافــع الغيظ من الرئيس صالح،كان التجمع اليمني للإصــلاح الحزب المناقض لعقائد الحوثيين المذهبية يتبنّى شروط المتوكل ويدافع عنها.

لم ينسَ محمد عبدالملك المتوكل طيلة حياته أنَّ ثورة ٢٦ ســبتمبر ١٩٦٢، نفت عائلته مــن اليمن، لم ينــسَ أنه كان وزيــرًا للإعلام في حكومــة المنفى المتوكليــة، كان مضطــرًا إلى قبول الحيــاة تحت ظلال الجمهورية اليمنية، لكن هواه، عشــقه، صورته، تاريخه، إرثه، جزءًا من صباه وشبابه كان إماميًا.

مثّل المتوكل القوة الناعمة للهاشــمية السياســية داخل اليمن، أعلن استقالته من وزارة إعلام الإمام البدر في منتصف الحرب الدائرة بين نظاميْن يمثل كلٌّ منهما نقيضًا للآخر، غادر على متن طائرة مدنية من مطار جدّة الدولي في الرحلة رقم ١٠٥xy متوجهًا إلى القاهرة لدراســة الليســانس في الإعلام، أكمل الماجســتير والدكتوراة أيضًا، صديقه في قاعة المحاضرات "طلعت بســيوني" اكتشــف أنَّ "المتــوكل" كان وزير إعلام النظــام الإمامي، قال لــه باللهجة المصرية: "يخــرب بيتك أنت اســتقلت ليه ياوزير؟". ضحك الشــاب النحيل ذو الأنف المعقوف،

هزّ كتفيه قائلًا "طالب في القاهــرة ولا وزير في المنفى". في عهد الرئيس الراحل إبراهيم الحمدي، اقترب الشــاب الذي قضى معظم أيام شبابه بعيدًا عن اليمن من منصة خشــبية على مســندها نســخة مــن القرآن الكريم، كان العقيد ابراهيم الحمدي الواقف في مواجهة المنصة يرتدي بدلة سفاري خضراء، رفع الشــاب ذراعه وأقســم على الولاء للنظام الجمهوري. وفقًا لذلك اليمين الدستوري صار محمد عبدالملك المتوكل وزيرًا للتجــارة والتموين. تجــاوز المتوكل المنصة وخطــى بثبات نحو رئيســه الجديد، صافحه، اقترب إلى جواره، ابتســم كلاهما في مواجهة عدسة المصور.

فتحت الجمهورية باب التســامح مع الــوزارء الإماميين الذين شــاركوا محمد البدر حروبه في احتلال صنعاء اليمنيــة، ظنّ الحمدي أنه سيشــكل بهم توازُنًا سياســيًا يرمم أحزان حرب الثماني ســنوات، مواســيًا عائلات أكثر من ٢٠٠ ألف قتيل. في ١٠ أكتوبر ١٩٧٧ اغتيل العقيد إبراهيم الحمدي وشــقيقه عبدالله في حفل غداء دبّره نائبه أحمد الغشــمي، كان أول رئيس جمهوري يُذبح على مائدة السلطة، بعد ثمانية أشهر، مزقت حقيبة ملغومة حملها مهدي تفاريش من مطار عدن جسد الرئيس الغشــمي، واندلعت حربُ الثأر للرئيس القتيل بين الشطريْن اليمنييْن، سجّل أحمد الغشــمي الرقم اثنيْن في قائمة الرؤساء الشماليين المذبوحين، حين تضع سبابتك على خارطة الجنوب اليمني لتعقد مقارنة

بين نظاميْن جمهورييْن أعلنا استقلالهما عن نظاميْن بائديْن أحدهما إمامي عنصري والثاني استعمار غربي، كان الجنوب يضج كل خمس سنوات بحفلات إعدام ومكائد تصفيات مرعبة بين رفاق الاستقلال والنضال، في الشمال نجا المشير عبدالله السلال، وخليفته عبدالرحمن الإرياني من القتل، أعلنا أنهما سيغادران اليمن بهدوء، في الجنوب قدّم قحطان الشعبي استقالته من رئاسة الجمهورية في ٢٢ يونيو ١٩٦٩ إلى الجبهة القومية، احتجزه أصدقاؤه في منزله، ونُقل بعد أشهر مع رئيس وزرائه فيصل عبداللطيف الشعبي إلى سجن الفتح الشهير. في زنزانة باردة، اخترق الضوء كوة صغيرة في الأعلى، وقف ضفدع صغير في منتصف الدائرة المضاءة على أرضية الزنزانة، بدا الضفدع كنجم غنائي سُلِط عليه ضوء مُوجّه من مصباح ضخم. تذكر فيصل عبداللطيف الشعبي مسرح عابدين في القاهرة قبل عشر سنوات، تذكر ضحكته الصافية من حوارات ونكات إسماعيل ياسين في مسرحية "يالدفع يالحبس"، وليالي خان الخليلي، شارع التحرير، فندق قصر الجزيرة في الزمالك، ربطة عنقه التي ابتاعها من فتاة مسيحية ظلت مشدودة إلى شاربه المنمق الرفيع، وابتسامة الجبل التي تحرك عضلات خدّيه، بائع السجائر في كشك ميدان طلعت حرب. تذكر فيلمًا وثائقيًا عن كوبا في سينما القاهرة، أبصر بعينيْن رماديتيْن مشاهد اعدام وحشية لثوار ومدنيين عُزل في هافانا. تذكر ليلة هروبه من مصر متخفيًا عن أعين رجال مخابرات

صلاح نصر الذين احتجزوه تسعة أشهر، وصل بيروت ومنها إلى تعز، ثم إلى الجنوب اليمنـي. أصدر باب زنزانته الحديـدي صريرًا مزعجًا، فرَّ الضفدع من دائرة الضوء، دخل جنديـان، أغلق الجندي الثاني باب الزنزانـة، أمره الجنـدي الأول بالوقوف، كان يجلـس القرفصاء، يداه تطوقان ركبتيْه المضمومتيْن إلى صدره، الشـتاء يلفظ أنفاسـه الأخيرة. نهض رئيـس وزراء اليمن الجنـوبي المُعتقل في زنزانة انفرادية بسـجن الفتح، وفي تمام السـاعة العـاشرة إلا ربع صباحًا سُـمع صوت أربع طلقاتٍ نارية، في داخل الزنزانة نزف جسد فيصل عبداللطيف الشعبى من أربعة ثقوب، ثقب في ترقوته، ثقب في الجانب الأيسر من الجمجمة، ثقب في ذراعه الأيمن، وثقب أسـفل ذقنه، لم يتحرك شيء في العشرين ثانية الأولى، الضفدع في أقصى الزاوية اليسرى يراقب جريان سائل أحمر باتجاهه. استدار الجنديان سريعًا. أوصدا باب الزنزانة وراءهما بإحكام. لم يكن ثمة شهود سوى الضفدع.

قدر الرئيس الأول لليمن الجنوبي هو الآخـر وصله مبتورًا، اقتيد قحطان الشعبي مُكبَّلًا إلى كوخ شعبيٍّ على طريق ساحل عدن – أبين. لم يرَ وجه ابنه نجيـب مرة أخرى، من زاويـة منفرجة بين أعواد الكوخ فتح قحطان عينه اليمنى عن آخرها، رأى البحر العربي لآخر مرة في حياته، شاهد غرابًا يمشي قلقًا على الساحل، تذكر قصة قابيل وهابيل، نُتف ممزقة لجريدة ملقية عـلى أرضية الكوخ، نصف

وجهه في خبر عن مفاوضات الانســحاب الإنجليــزي من عدن، عنوان آخر غــير مكتمل عــن عبدالرحمن الإريــاني في مفاوضات حرض. تذكــر احتجازه في مــصر، واعتذار جمــال عبدالناصر بعد ذلك بســنوات، تذكر كلمات لورد شــاكلتون خلال توقيعه اتفاقية الاستقلال "أنتم أعداء أنفسكم يا صديقي!".

صباح يوم ٧ يوليو ١٩٨١، شــاهد أبناء عدن صورة قحطان الشــعبي على غلاف صحيفــة ١٤ اكتوبــر في الزاويــة اليُمنى من صفحتها الأولى. جاء العنــوان كالتالي: وفاة قحطان الشــعبي بعد صراع طويل مع المرض!.

في عهد علي عبدالله صالــح لم يتولَّ محمــد عبدالملك المتوكل منصبًا وزاريًا، كان منشــغلًا بهوايته التي يتقنهــا "اللعب بالعقول". التحق بجامعة صنعاء لتدريس مادة العلوم السياســية لطلاب كلية التجارة، معظم قيــادات البلد وخريجي المعاهد الدبلوماســية مرّوا على قاعته، ســمعوا عباراته، حفظوا كلماته ومصطلحاته وتفسيراته لفنون السياسة الممكنة وغير الممكنة. في يناير ٢٠١١ جلس الدكتور المتوكل إلى مذيع بارز في قناة الســعيدة، قال بوضوح إنَّ ما حدث في ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢ كان انقلابًا وليس ثورة. لم يشكل ذلك التصريح الخطير فارقًا لدى النظام الجمهوري في تلك اللحظة. أجهزة السلطة الأمنية والعسكرية حائرة ومُســتنفرة في مواجهة ثورة صنعها الرجل

العجوز على مهل، طوال سبع وخمسين سنة لم يهدأ وزير إعلام الإمام البدر الأســبق خلال أيامه المتعاقبة من صباه إلى شبابه وكهولته حتى صنع المعجزة، أرغم الجمهوريين أنفسهم على إسقاط الجمهورية عن طيب خاطر، علّم الأحزاب السياســية وســيلة رفض الديمقراطية، صاغ لهم طريقًا واحدًا يبدأ بالدم.

– ٤ –

أزيز رصاص كثيف يصدم الجدار، أنين مكتوم، رائحة شــواء، أصوات تعلو وتنخفض، أقدام ثقيلة تطرق الأرض، وجه شــاب ملتحٍ يدنو من جســد رجل ســبعيني تصعد منه أبخرة دخان، صوت زجاج يتحطم. علي عبدالله صالح مســجى على أرضية جامع الرئاســة، ساقه اليمنى منزلقة بعنف إلى أســفل جســده، ثيابه ممزقة، آخر شيء يتذكره كان وميضًا كهرمانيًــا في منتصف المحراب بالجانــب الأيمن من ذراع قائم الصلاة علي المطري، رفع خمسة جنود يلبسون رداء الحرس الخاص جسده عن الأرض واندفعوا به خارج الجامع، صوت كان قد سمعه من قبل يأمرهم بوضعه على مهل في وضعية الاستلقاء على مقاعد الراكبين الأوسط، تحركت الســيارة ترافقها حراسة ســيارات مُدرعة ومُدججة بالجنود ومختلــف أنواع الأســلحة، كل خلية في جســده تئنُّ، تصرخ، تتعذب، اخترق الموكب شــوارع صنعاء باتجاه طريق الســائلة، صوت قذائف متبادلة في الفراغ، الراكب في المقعــد الأمامي يراقب بقلق حالة الرئيس الصحية. جهاز اللاســلكي ملتصق بفمه، توجيهات وأوامر، مصطلحات أمنية وشيفرات سرية تقال في حالات الطوارئ القصوى.

إطارات السيارة تعوي في منحدرات الطريق الحجري الخطر، جموع متفرقة من أناس فضوليين شاهدوا الموكب الرئاسي يندفع بسرعة قصوى باتجاه الشمال. اقتحمت السيارات مجمع العرضي العسكري، دارت حول الفناء، وتوقفَت قبالة مدخل المستشفى الخاص، هرع الأطباء والممرضون لحمل الرئيس المحترق إلى سرير متحرك. الطبيب المناوب أصدر شهقة عالية متأثرة لرؤية رئيسه متفحمًا وممزقًا. صاح: يا ساتر يا ساتر!.

قبل لحظات، على مقربة من دار الرئاسة، اختطف زيد الشامي المايكرفون من خطيب جمعة الحشد الثوري المناوئ للرئيس صالح، مبشرًا بإعلان مفاجئ: لقد ضرب الصاروخ دار الرئاسة. هتف المحتشدون بحماس: الله أكبر!. نقلت قناة سهيل المملوكة للشيخ القبلي المعارض حميد الأحمر خبرًا عاجلًا باللون الأحمر احتل ثلث الشاشة عن مقتل علي عبدالله صالح خلال فراره من دار الرئاسة.

اضطرب اليمنيون في نهار جمعة ٣يونيو ٢٠١١، ابتلعت صنعاء مواطنيها في دقائق، اختفت السيارات، استمرت المحال التجارية في الإغلاق، طارت الشائعات والأخبار والتكهنات بسرعة الضوء من منزل إلى آخر ومن مدينة إلى أخرى، من طرف اليمن الشرقي إلى طرفه الغربي، طولًا وعرضًا، شمالًا وجنوبًا. قناة اليمن الرسمية لم تُفصح عن شيء، شاشتها متسمرة في نقل متكرر لأغانٍ وطنية. أنصار صالح

في ميدان السـبعين هاجوا قليلًا ثم تفرَّقوا. الثوار في شـارع الستين لم يعودوا إلى خيامهم في ساحة الجامعة، سـيطر القلق عليهم أيضًا. لزم كثير منهم منزله، حبس اليمنيون أنفاسـهم بانتظـار ردٍّ فعل أقارب الرئيس الغارق في دمه بغرفة عمليات مستشـفى العرضي المخصص لعلاج فائق النوعية.

على بُعد كيلومترات قليلة في الشمال الشرقي للعاصمة صنعاء، كانت أصوات الحشـود المطالبة برحيل الرئيس عـلي عبدالله صالح تخترق غرفة عبدربـه منصور هـادي المنهمك في رهـان باهض على معركة شطرنج مع مرافقه الشخصي محمد القاضي، أمسك نائب رئيس الجمهورية حجر البيدق. هزه قليلًا في أصابعه، ثم وضعه بمربع أسود على زاوية تسعين بين الشـاه والوزير، شعر منافسـه بالخطر، أمسك وزيره بثلاثة أصابع ونتف رأس البيدق متدحرجًا خارج رقعة اللعبة، اتسعَت ابتسـامة النائب. أصدر مرافقه شـهقة متحسرة، تنبّه متأخرًا أنه كشـف بتسرُّعه ظهر الشـاه، عاد عبدربه منصور بجذعه قليلًا إلى الوراء، حـرّك بخفة رأس خيلـه بأربع نقلات حسـمت معركة بلا سلاح، قائلًا بظفر: كش ملك.

صفّـق محمد الحاج مسـؤول شـؤون مراسـيم النائـب لفوز مرؤوسـه، ونهض واقفًا من جلوسـه الطويل في جناح مكتب النائب المنزلي، وضع مرفقه على ظهـره وانثنى إلى الخلف، ثم يمينًا ويسـارًا،

مُصدرًا أنّــة مكتومة يرافقها صوت طقطقة عضلاتــه. بقي النائب على كرســيه يراقب ضحايا المعركة الشــهيرة التي عُرف بها العرب قديمًا، كانت جزءًا من ملامح شــخصية قــادة الجيوش وهوايتهــم المفضلة. يمنح الاتحاد الدولي للشــطرنج الفائز في مونديال عالمي لقب "أســتاذ كبير"، خُطط اللعب تُركز على إلهاء الخصــم بتحركات أحجار المعركة، وتبدو قدرة اللاعب في التأثير النفسي على خصمــه أهم خطوة بطريق تحقيق الفوز والنيل من الشــاه الذي حدَّدت له القوانين نقلات محدودة وأحاطته بصفٍّ طويل من الجنود وحاشية تبدأ بوزير وضابطين وخيليْن وتنتهي ببيدقيْن. الجنــود يمثلون خطَّ الدفاع الأول، وكســائر معارك الدنيا يضحّون بوجودهم في الدقائق الأولى للمعركة. اللاعب الماهر هو ذاك الذي لايجازف بجنوده ما لم يكن منافسه شرسًا يستنزفه كل رجاله وصولًا إلى رأس الشاه ذي القامة الأطول بين كل أحجار الشطرنج.

تذكّر عبدربه منصــور هــادي أول أيامه في محاولــة تعلم لعبة الشطرنج إبّان تدريبه العســكري بكلية ساندهيرست الملكية البريطانية في ســتينيات القرن الماضي. أغمض عينيه، مال برأســه إلى الوراء حتى كاد يُلامس مســند كرســيه الجلدي الطويل مُطلقًا زفرة طويلة، تذكّر وقوفه أمام قائده البريطاني في مســتعمرة عدن – أبــين، يداه معقودتان إلى الوراء، رجلاه منفرجتان. ناوله ويليم جونســون مُغلفًا كاكي اللون يتوسطه شــعار ذهبي للملكية البريطانية، بداخله شــهادة قبوله بكلية

ساندهيرســـت، طار الشـــاب فرحًا، وبعد أيام طـــار إلى لندن على متن طائرة مدنية إلى بيروت، مكث يومين في نُـــزل مُكوَّن من ثلاثين حُجرة بالقرب من انحدار ترابي تكسوه الخضرة على ضفاف نهر الكلب، كانت بعض أحياء بيروت شيئًا يشبه البازار الرئيس لحي كريتر. خلف حاجز خشبي قرابة المتر، قالت مســؤولة النزل -وهي ســيدة فرنسية عجوز وبدينة لها عينـــان صغيرتان وجفنـــان متهـــدلان- إنَّ عبدربه منصور هادي الواقف أمامها يُذّكرها بحبيبها الجزائري. كان ذلك قبل خمســين سنة، لوّحت بأوراقه الثبوتية، وقالت بسرعة: دعك من هذا!، التقطت مفتاحًا بسلسلة معدنية وناولته مضيفة: الغرفة ٢٠١.

بعد يومين، في تمام الســاعة التاســعة إلا ربعًـــا صباحًا بتوقيت بيروت استقل هادي رحلته المباشرة إلى لندن على متن طائرة لوفتهانزا. جلس على المقعد *B25* المجاور للنافذة الســـابعة من أصل عشرين نافذة صغيرة في هيكل الطائرة الضخم.

في صباح يوم ٢٣ فبراير ١٩٦٦، شـــعر عبدربـــه منصور هادي بكفٍّ نحيلـــة وأصابع خشـــبية تقبض معصمـــه وتدفعه باتجـــاه مبنى استراحة الطلاب في كلية ساندهيرســـت، أدار هادي رأسه إلى اليسار، وندت منه ضحكة قصـــيرة "أوه إنه أنت أيها البدوي الليبي!".اســـتمر معمر القذافي يحثّه الســـير حيث يريد، لم يُعلق بكلمة. اكتفى بشيء على عضلات وجهه يُشبه الابتســـامة، دفع القذافي بيده اليسرى بابًا زجاجيًا

مُزدوجًا، صعدا درجًا رخاميًا واســعًا مُحاط بدرابزين خشبي لامع، دار القذافي نصف دورة كاملة، تجاوزا غرفة العزل، صوت جنود يضحكون في غرفة القياس، بجوارهما تحرك شــاب أسود بمنخار ضخم وفتحتين مكشوفتين إلى أعلى يضع عصابة قطنية على رأسه، كاشفًا نصف جسده من الأعلى، وفي قدميه قبقاب أبيض بخطوط سوداء عريضة من المطاط، يُغطي جزءه الأسفل إلى منتصف الساقين بمنشفة زرقاء، أزاح "معمر" بكتفه اليسرى ســتارًا ثقيلًا يُخفي وراءه صالة صغيرة جرداء، زملاؤهما في منتصفها، أربعة يتحلقون باهتمام حول شــخصين جلســا متقابليْن تفصلهما طاولة حديدية مربعة ومُثبّته بقاعدتيْن مزدوجتين إلى الأسفل، في ســطحها أحجار متنوعة لأشــكال غريبة، ورقعة مخططة بمربعات ســوداء وبيضاء. فَرَدَ "معمر القذافي" كفيه في الهواء، قائلًا: هل تستطيع اللعب أيها الجندي؟. قطــب "عبدربه منصور هادي" حاجبيه، شــعر بالحرج، أجاب بكلمة واحدة: لا.

في صنعاء، بعد خمس وأربعين سنة، أزاح نائب رئيس الجمهورية كفيْه عن وجه بدا عجوزًا، نهض إلى المرآة المعلقة في جدار الغرفة، تأمَّل تفاصيل وجهه، مرَّر أصابعه على صلعة ملســاء شكّلت جزءًا كبيرًا من ملامحه، تقدَّم بخطــوات بطيئة متجاوزًا مكتبة فخمة من ســبعة أرفف وُضعــت عليها كُتــب وعناوين مُذهبــة وملونة بالأســود والأخضر والأحمــر، في الرفّ الثالــث أجزاء صحيــح البخاري كاملــة ومرتّبة،

صحيح مسـند، البخلاء للجاحظ، طوق الحمام لابن عربي، رواية قصر الشـوق لنجيب محفوظ، الأعمال الكاملة للشـاعر الأسطوري عبدالله البردوني، في واجهة الرفِّ الزجاجي الأول نُسـخة مطبوعة من القرآن الكريم، على الواجهة المسـتطيلة إطـارٌ نحاسيّ مغطـى بزجاج لامع تتوسـطه قطعة من رداء الكعبة المشرفة؛ يشـعر عبدربه منصور هادي باعتزاز وبركة تلـك الهدية التي تلقّاها من ملك السـعودية عبدالله بن عبدالعزيز قبل عاميْن.

في جنوب صنعاء، وقف العميد أحمد علي عبدالله صالح يراقب من نافذة القيادة العامة للحـرس الجمهوري تدريبات الجنود اليومية، حركة دائبة في فناء ترابيٍّ واسـع، تنقلات لعربات عسـكرية صغيرة، خلف المكتب الضخم المزخـرف بحروف ذهبية وقـف مدير مكتبه "طارق الرضي" مقوّسًـا يطالع أوراقًا وملفات، يحيل بعضها إلى ملف أسود كبير، ويوزع أخرى على مفرزة بلاستيكية كُتب عليها "عمليات القيادة"، يكتب في زاوية بعض الأوراق توجيهات معتادة لقادة الألوية وأركانات الحـرس. تنحنح "الرضي" بخطوات ثابتـة، أدار ذراعه إلى أعلى، أشـار إليه "أحمد" ببعـض أصابعه، اقترب، ناوله قلمًا، وأسـند بباطن كفيْه دسـتة الأوراق، وقَّعها "أحمد" واحـدة تلو أخرى، لم يقرأ العبارات التي كتبها مديـر مكتبه؛ ثقته العالية منحتـه موقعًا نافذًا في معرفة أصول التوجيهات وخطوط قائده الحمراء والخضراء. مزاجه،

ولغة الأوامر العسكرية. استعد الاثنان للخروج، قائد حراسة العميد أبرق إلى حراسته في الخارج التأهب لتحرك قائدهم. جنديان يافعان أولًا، أحمد ثانيًا، قائد حراسته إلى يمينه، مدير مكتبه بجواره الأيسر يبادله حديثًا هامسًا، بالأسفل دارت سيارة لانكروزر مدرعة، تبعتها أربع سيارات مدججة بالمرافقين وسيارة اتصالات متنقلة حول نافورة صغير في فناء مركز القيادة وقوفًا أمام البوابة الرئيسة، في الأعلى، في الممر المؤدي إلى مصعد داخليّ خاص، اعترض العقيد "عبدالله المروني" طريق قائده. بحركة مرتبكة رفع مسدسًا أسود نوع جلوك أميركي. ضغط على الزناد.

لم يكن "أحمد علي عبدالله صالح" مُستعدًا للخروج من حياة النفوذ والجاه والمسؤولية، تأهيله النوعي، نجاحاته في صناعة جيش قوي تركن إليه الجمهورية في حراستها، أيضًا هو ابن الرئيس، والشاب المحبوب بين اليمنيين، أحلامه وطموحاته في الرئاسة وقيادة جزء من المشهد الوطني لا يمكن أنْ تنتهي هكذا بضغطة زناد، بلمح بصر، فجأة دون مقدمات. لم يكن عليه الرحيل باكرًا ، لم يكن مقبولًا ترك كل شيء حققه هنا، تفصله عن الحياة التي عاشها يتيمًا أجزاءٌ من الثانية، تذكّر أمه التي تركتْه وحيدًا في عائلة أصبحت رئاسية، لقاءاته النادرة مع والده، بداية حُكمه شكّلت بياض عينيه المشوب بشرايين حمراء دقيقة، بؤبؤا عينيْه سُجنا خلف قضبان حزن عميق، لم يكن له أصدقاء

حقيقيون، ذلك النوع من الأصدقـاء الذين يتصرفون على طبيعتهم؛ لا يتملقون، يتجرأون على الغضب، والعتاب. وماذا الآن؟ سأل أحمد علي عبدالله صالح نفسـه مُحدِقًا، مُسـتنكرًا، متعجبًا، غاضبًا، وخائفًا أيضًا. جاءه الجواب على هيئة مطرقة ثقيلة ضربت رأسه بعنف، سمع صوت رصاصة، رصاصتيْن. الشيء الوحيد الذي لا يريده الآن هو الموت، طار جسده في الهواء بضعة مترات. شعر بارتطامة قاسية على الأرض، وبثقل زائد يكتم أنفاسه، جسـد ضخم يحتويه، لم يكن في حاجة إلى المقاومة، استسلم للحظات وترك أذنه تلتقط صخبًا متواليًا، نداءات وصيحات، خبط أقدام ثقيلة على الممر. أدار رأسـه إلى الجانب الآيسر، ومن فرجة الفراغ الذي تركه الجسـد الجاثم عليه، شاهد قدمًا مسـتلقية على بُعد خطوات منه ترفس في حركـة متكررة، وبقعة دم قـانٍ بفقاعات حمراء صغيرة يعلوها بخار كثيف. رفع قائد حراسـة العميد جسـده بعد أن أطمئن لزوال الخطر، قفز أحمد علي عبدالله صالح على قدميْه بخفة، شعر برعشة تسري في أوصاله.كهرباء الحياة عادت لتوِّها. أحسَّ بفرح. يداه تتلمسان أنحاء جسـده بعصبية، أعاده قائد حراسته إلى المكتب وأغلق بابه الضخم بعنف، في الدقائـق التالية تلقّى العميـد أحمد علي عبدالله صالح خبرًا آخـر؛ لقد تعرَّض والده ورجـالات حكمه لعملية تفجير إرهابي خلال صلاتهـم لفريضة الجمعة في جامع دار الرئاسـة، الجامع الأكثر تحصينًا في اليمن.

قبلها بأربع ساعات

في القبو الأرضي الملحق بمكاتب الرئيس علي عبدالله صالح الرسـمية بدار الرئاسـة، تقدَّم "أحمد عبيد بن دغـر" الأمين العام المسـاعد للمؤتمر الشـعبي العام بوجه باشٍّ مصافحًا رئيسـه، ثم ألقى التحية على رئيس وزرائه علي مجور، ورئيس مجلس الشـورى عبدالعزيـز عبدالغني، ورئيس مجلس النواب يحيـى الراعي. أكمل علي عبدالله صالح حديثًا سابقًا:

- اليوم نواجه بأنفسنا حالات خطرة من الانقسام قد يستهدف شـخصيات بارزة، المعلومات التي جمعناها تتطابق في ترجيح تعرُّضي مباشرة لحادث اغتيال إرهابي. قال مسـؤول أمـن العمليات إنَّ ذهابي للمشـاركة في فعالية ميدان السـبعين سـتكون خطرة جدًا. أدار "علي عبدالله صالح" رأسـه بحركة مفاجئـة تجاه بن دغـر، مضيفًا: مارأيك يا دكتور؟، تنحنـح "أحمد عبيد بن دغر" ، شـبَّك أصابـع كفيه بقلق: المجريات الأمنية لا يمكن أنْ نتدخل فيها؛ فتقديرها يخضع لمن هم أهل الاختصاص، مَن يملكون معلومات أكثر دقة. أدار صالح رأسه ضجرًا إلى الجانب الآخر، وماذا عنك يا مجوّر؟ في رأيي أنْ تكون الصلاة اليوم في جامع الرئاسـة وأنْ تكتب خطابًا يلقيه سلطان البركاني على الجموع المحتشدة من أنصار النظام. شيء ما في علي عبدالله صالح يُشعِره بالعجز عن مواجهـة أزمة لم يرَ مثلهـا في حياته، تداعيـات أركان نظامه، علي

محسن الأحمر أعلن انضمامه لحماية شباب الربيع العربي في ساحة الجامعة وقد كان معه منذ طفولتهما، تطورات الدم المسفوح في جمعة ١٨ مارس ٢٠١١ ضربت أركان النظام، ضربت صداقة امتدت أكثر من ستين عامًا. مواجهات حيّ الحصبة المتقطعة عزلت شمال صنعاء عن جنوبها. الوجوه البارزة من قدماء نظامه اختفت، نزعهم الموت عن مجلسه وألقاهم في غيابة قبر مظلم، تحسّس قرني رأسه الأشيبان،سأل نفسه، لماذا لا تفكر في حلٍّ؟ أين دهاؤك يا رجل؟. أجاب في أعماقه: اختلفت الوجوه وتحوَّل الناس في طبائعهم وغزل النفاق والفقر شكلًا آخر من الطبائع المستعصية. حماسة الشباب المدفوعين باستماتة إلى رحيل النظام وإسقاطه سيفتح أبواب الجحيم. سأل نفسه مرة أخرى: لماذا لا يُصغي هؤلاء الحمقى المراهقون؟

أدار بعينين خاويتين رأسًا يراقب من حوله، شاهد شفاهًا تتحرك، أذرعًا تفتح أكفَّها وتنفرج أصابعها، هراءً مستمرًّا لا غير. زفر بحرارة وضرب بكف مقبوضة طاولة القبو الضخمة، انتصب واقفًا وتبعه رجاله، وجّه أمره الأخير بذات الوجه، وذات الجِلد والملامح إلى أحمد عبيد بن دغر قائلًا: اذهب إلى مكتب السكرتير الصحفي واكتب خطابًا، وسنتحرك نحن للصلاة في جامع الرئاسة والحق بنا بعد ذلك.

استوى بن دغر على كرسي الصندوق الأسود لـ "علي عبدالله صالح"، سكرتيره الصحفي الغامض، الهادئ، الأكثر ذكاءً، وأقل

الرجال المحيطين به تصادمًـــا، لا يُفصح عن شيء مـــن مواقفه، رجلٌ رمادي وضع آراءه في خزانة مصفَّحة، وابتلع مفاتيحها في بطنه. ســـتائر الغرفة حريريـــة داكنة، خطوطها الملتهبة كجنـــاح طاووس أضفت على الغرفة هالة من الأسطورية. رأس رمل حجري لـ "علي عبدالله صالح" مُثبت على قاعدة رخامية بيضاء فوق خزانة رمادية ضخمة على الجانب الأيسر، ثُبِت مكان العينين ياقوتتان حمراوان، وأُدير الوجه مباشرة قبالة الجالس عـــلى المكتب. ذات يوم ســـأل "علي عبدالله صالح" ســـكرتيره "عبده بورجي" عن مستوى الرقابة الذي يفضله في عمله؟ دعاه بورجي إلى مكتبه وأشار إليه برأس التمثال قائلًا: لقد وضعتُك هنا كرقابة ذاتية. ضحك علي عبدالله صالح طويلًا لطرافة وذكاء سكرتيره.

اقتطع أحمد عبيد بن دغر رزمة أوراق بيضـــاء من ماركة الدبابة بخطوط أفقية زرقاء باهتـــة، التقط قلمًا أحمر من حافظـــة جلدية ممتلئة بأنواع الأقلام، وشرع في الكتابة "أيها الشـــعب اليمنـــي الأبي...". بعد نصف ســـاعة كان قد انتهى، صفحتـــان كاملتان بخـــط الرقعة. أعاد قراءة الخطاب مرة ثانية ثم طواه، أدخله في جيب ســـترته. عند الباب ، شـــاهد أحمد عبيد بن دغر أربع ســـيارت تطير أمامه بسرعة هائلة، رفع رأسه إلى الأعلى، الســـحُب تتراكم حول بعضها، تسير بطيئة في ظهيرة قائضة، خُيّل إليه أنه رأى صاروخًا يقترب، أحنى رأسه تلقائيًا، ضرب الصاروخ بعنف جـــزءًا من صهاريج الغاز في فناء الرئاســـة. اســـتدار

مهرولًا حيث تقف سيارته، أمر سائقه الذي أنبأه بالحدث الإرهابي بالخروج سريعًا. في البوابة الأخيرة لدار الرئاسة سأل عن مكان نقل الرئيس؟، كانت التوجيهات الصارمة تمنع الإفصاح عن أيِّ معلومات أمنية مهما بلغ حجم ووزن ومنصب السائل.

تجاوزت سيارة أحمد عبيد بن دغر الحواجز الإسمنتية المجاورة لبوابة دار الرئاسة، منطلقة في اتجاه شارع الستين الشمالي. راقبه سائقه من مرآة السيارة الأمامية. أسند الرجل البالغ من العمر تسع وخمسين عامًا ذقنه إلى بعض أصابع يده اليمنى، عيناه تسبحان في الفراغ، عقله يضج بمئات الأسئلة، وفي جيبه يرقد الخطاب الذي لم يقرأه علي عبدالله صالح أبدًا.

***

في الجزء الشمالي للعاصمة صنعاء، في حيّ الحصبة، وضع العجوز عبده الريمي سماعة المذياع على إذنه اليمنى. يسمع كعادته أخبار التوترات المتقطعة تضرب بأس صنعاء، مُنذرة بشلال دم واسع، اتكأ العجوز الضامر إلى عربة جائلة تمتلئ بأصناف خضروات منوعة، ربطات فجل أخضر يانع، كُراث طويل محزز ببثور بنية على أطرافه، جرجير، زهرة الكوبش البيضاء تشبه كل واحدة منها تلافيف المخ، العجوز البخيل كان يُصغي إلى مذياعه الأثير القديم بأحاسيس رجل

مخابرات، يُحلّل المعلومات ويفرض التكهنـــات، يتفحص وجوه الناس وعلى سطور الصحف التي يقرأها ولا يشـــتريها في كُشك دوّار الساعة يتنبأ بريح صرصرٍ عاتيـــة. يتمتم أثيرته اللازمـــة "إذا تصارع الأحمران؛ دار الزمان، وجاء الإمام، ومات البـــشر، وتكاثرت النوائب، وعظمت المصائب!". يســـتمر في الصياح متجاهلًا حشـــدًا مبعثـــرًا من المصلين الخارجين لتوِّهم من جامع أبو ذر، يعرض بضاعته ولا يكفُّ عن سرد لازمته اليومية: "تحدُث الفتنة ويدخل الســـواد بلاد فارس، ويشـــتعل البحر ويهيج المحيط، وتضطرب بلاد الفرنجة، يخرج أحمر ويبقى أحمر، وفي الأربعين يُقتل مَن بقي في حَدّ سنحان".

بعد دقائـــق، يعلو صوت مذيـــع قلق في إذاعة صنعـــاء، يُصغي "عبده الريمـــي" أكثر، جاءنا النبـــأ التالي: تعرَّض فخامـــة الرئيس علي عبدالله صالح لهجوم إرهابي في جامع النهديـــن. صاح العجوز منفعلًا "اشـــتعلت.. اشـــتعلت.. لا إله إلا الله، لـــن يموت اليوم، وســـبحان الديّان الذي لا يموت!". طـــرف بعينيه إلى واجهة منـــزل "عبدالله بن حسين الأحمر"، لطخات حريق أســـود يمتد من نافذة المقيل الرئيسي في الخارج إلى صورة محترقة للشـــيخ على واجهة المبنى، خرســـانات ترابية ضخمة تحوط المبنى من جوانبه الأربع، اصطفَّ إلى جوارها بضع قبائل مســـلحين في مجموعات متفرقة، وهناك في الشـــارع المقابل لدار الشيخ المهيبة، عصفت ريح قوية مفاجئة اهتزت لها خرق خضراء متهالكة على

طول مبنى طـيران اليمنية الزجاجي. كان المبنى مهجـورًا ومحترقًا منذ عشر سنوات. صاح العجوز: اشتعلت.. اشـتعلت.. وأخذ يجر عربته العتيدة أمامه في هدوء.

طافت الرياح أطراف صنعاء، توغلت أكثر باتجاه أقصى الشمال، هناك حيث كانت حقول أحمد حميدالدين وأكثرها خصوبة، هناك قضى نجله البدر أحلى أيام صباه متنقلًا بين كـروم العنب، ومزارع البرتقال. متدليًا على أنشطوة سميكة يدفع جسـده إلى الأمام ويعيده إلى الخلف، يلعب المدرهة في سـباق مرح مع حبيبته الأولى سُـكينة. ورثت سُكينة عن والدتها التركية عينيْن بنيتيْن لامعتيْن وزغبًا خفيفًا ذهبيًّا يحوم حول عنقها الحليبي صعودًا إلى صدغيها ملتحمًا بخصلات شـعر أشقر ناعم معقوص إلى أسـفل. أنفها المدبب المسـتقيم على ارتفاع أرنبته يجعلها "مارلين مونرو" أخرى، هناك اشـتهاها البدر، لاحقها، ركض وراءها، استنشق عبيرها، وأغلق على بعضهما أبواب قصوره وحظائر إسطبلاته قائلًا بلهفـة: هيت لكِ، إلا أنهـا دفعتْه مرارًا، ومرارًا شـعر بمرارة في حلقه، بعجز المراهق عن إتيان حبيبته وإشباع نزواته وإفراغ طاقته.

في تلك الأيام، كان البـدر على أعتاب خطوتـه الأولى بمرافقة والده في القـصر وحضور دروس مكثفة لفقهاء الديـن ومعلمي اللغة والحسـاب. عاد الأمير من إجازته. ولم يعُد روضته. صار وليًا للعهد. بويع بعد ساعات من رحيل والده إمامًا على الشطر الشمالي من اليمن.

بحلول أول ضياء ليوم السادس والعشرين من سبتمبر ١٩٦٢، توقفت دبابة روسية الصنع على بُعد أمتار من قصره في منتصف ميدان شرارة، انطلقت القذيفة الأولى، الثانية، الثالثة، اهتز قصر البدر. وأعلن الثوار عبر مذياع صنعاء قيام الجمهورية. في تلك الأثناء، في مدرسة الأيتام كان فتى صغير يُدعى "عبده الريمي" يجلس في زاويته، مُصابًا بأرق حرمه نوم ليلة الثلاثاء، أخرج من مخلاته مذياعًا جديدًا تلقاه هدية من والده العائد من أرض الحجاز، أدار الفتى النحيل عجلة المذياع، ارتفع صوت "محمد الفسيل" عبر الأثير "هنا صنعاء، إذاعة الأحرار، إذاعة الثوار، إذاعة الشعب، إذاعة الجمهورية العربية اليمنية. الله أكبر يا بلادي كبِّري"، قفز الفتى من سريره الحديدي منتصبًا كسارية علم في منتصف الغرفة، تململ في وقفته، دفعه الفضول إلى طرق باب معلم المدرسة "عبدالله الكبسي"، ولما ظهر عليه بوجه نائم عبوس وشاخط: سأله عبده الريمي: يا سيدنا ماهي الجمهورية؟، توسَّعت عينا الكبسي عن آخرهما، وعلى الفور سدّد إلى وجه تلميذه الصغير صفعة أطاحت به عدة أمتار.

بعد خمسين عامًا، يقول "عبده الريمي" لحفيده "عبدالمغني": "في تلك اللحظة عرفتُ معنى الجمهورية".

اشتعلت أراضي الروضة ببيوتات صغيرة، توسع العمران كوحشٍ يلتهم حقول العنب، اختفت مدرهة البدر، تزوجت "سكينة" بابن خالها، أنجبت له ثلاثة أطفال وبنتًا صغيرة ورثت وجه والدها

الدميم. استوطن بقايا العائدين من حروب الإمامة والجمهورية بعد ثماني سنين من الصراع أرضًا خلاء على الجانب المقابل من الروضة، أطلق عليها حيّ الجراف، تسللوا بهدوء لا يثير انتباه النظام وحفيظة الرؤساء وأسئلة جهاز الأمني الوطني، خلال عقود متعاقبة، شُيدت مئات المنازل، ألقابٌ معينة فقط وجدت متسعًا من الأرض للبناء، تشكلت على مدى خمسة عقود كتلٌ واسعة من الأحياء السكنية، وفي ربيع ٢٠١١ فتحت عائلات حي الجراف أقبيتها. امتلأت المخازن والبيوت والمدارس والمعاهد وصالات المناسبات بأطنان الأسلحة وعشرات الآلاف من البوازيك والرشاشات وذخائر الرصاص بأنواعها وأحجامها.

في ظهيرة يوم ١٥ يناير ٢٠١١، توقفت شاحنة بيضاء أمام منزل مكون من طابقيْن، أنزل أربعة شباب لوحة مضاءة بمصابيح النيون الثلجية، وضعوا السُّلم، شدّوا الحِبال، ارتفعت اللوحة رويدًا رويدًا، ومن شرفة المبنى المطل على الشارع الرئيسي لحيّ الجراف أصبح ممكنًا للمارة أنْ يقرأوا لوحة كُتب عليها بخطوط متوهجة عبارة "المكتب السياسي لأنصار الله".

لاحق علي عبدالله صالح الشمس بطائرته الرئاسية فجر ٢٢ فبراير ٢٠١٢، انحسار الغسق في يوم لا قمر فيه ، فقط كانت الشمس من نيويورك إلى صنعاء ، سأل نفسه : هل قامت القيامة؟ تمنى لو أنها

هي وتلك علاماتها، حين تشرق الشــمس من المغــرب، وتصير الجبال كالعهن المنفوش ، فلا يدوم للثائرين عليه يــوم مجيد. هبط "علي عبدالله صالح" إلى صنعاء راكبًا طائرته الرئاسية في أعقاب رحلة علاجية طارئة إلى مستشــفى *Weill Cornell Medicine* بنيويــورك، انتــشرت تلك الليلة مشــاهد فيديو التُقطت بعدســة هاتف محمول يظهر فيها شــاب مندفع خارج أســوار الحمايــة الأمنية لعلي عبدالله صالــح يقذفه بحذاء لحظة خروجه من المشــفى. أنصار الثورة احتفوا بالحذاء الذي لم يلطخ وجه رئيس غامر بالخروج من رئاسته في وضع حرج، أحسَّ النظام كله بالإهانة، وأسرّ صالح في نفسه رغبة الانتقام، الثأر من كل عبارة لطّخت سُمعته، النيل من كل يد أحرقت جســده، يومها قال لشباب من حزبه إلتقاهم على مقربة من خيمة ملونة في فناء منزله "أنه لن ينســى حقه في الرد وسيورثه إلى أحفاده" قالها بفم غاضب وعينين مملوئتين بدم محتقن.

في ٢٥ اغســطس ٢٠١٣ كتب الصحفي المصري "محمد حسنين هيكل" مقالًا بصحيفة اليوم الســابع "لم يكن غريبًا على رئيس ســابق يتعرض لكل هذا التنمّر الدفاع عن نفســه، أنْ يفتــح النار على أعدائه الذين يتحصنون خلف حيطان الحكومة الجديدة وقد منحها لهم بتنازل يُقرّه البرلمان ويحصنّه من أيِّ ملاحقة قضائية، لم يكن العقل قد عاد من أجازته، كل طرف رغب في إذلال الآخــر بالقدْر الذي يمكنه من بلوغ نهاية مشابهة لرجل ليبيا القوي"

في المنتصف، منتصف الصراع، ومنتصف السيف، كان أنصار الله "الحوثيون" خيار الأطراف الجمهورية المفضل. ثوار ١١ فبراير وأحزاب اللقاء المشترك يرونهم جزءًا من ثورتهم. علي عبدالله صالح وعديد أعضاء حزبه تخللتهم ظنون اعتدال الحوثيين عن قلب نظام الحكم لاستعادة النظام الإمامي بطريقة مقاربة لجمهورية إيران الإسلامية. المحافظة على اسم الجمهورية، وتنصيب إمام ينتمي نسبًا إلى العِرق الهاشمي تجسيدًا لشروط المذهب الزيدي التي تحصر الولاية العامة في البطنين.

الساعة العاشرة وثلاث دقائق من صباح اليوم الثالث، أعلن الناطق باسم اللجنة العليا للانتخابات فوز المرشح الأوحد عبدربه منصور هادي بوظيفة رئيس الجمهورية، بنسبة ٩٩,٨ بالمئة من إجمالي أصوات الناخبين. الحوثيون أعلنوا مبكرًا مقاطعتهم التصويت. كان تحديًا لنصوص المبادرة الخليجية التي وقَّعها الرئيس علي عبدالله صالح ونخبة من أحزاب المعارضة في عاصمة المملكة العربية السعودية، وجدولت المبادرة إطارًا زمنيًا لتنفيذها، جعلت من عبدربه منصور هادي مرشحًا بلا منافس. ارتضى اليمنيون ذلك المخرج سبيلًا للوصول إلى حالة استقرار ملائم يمنحهم القدرة على التقاط أنفاسهم واستعادة بعض من حيواتهم السابقة. وبانقضاء السنتين الأولى والثانية، حبسوا أنفاسهم على وقْع توسُّع الحوثيين خارج حدودهم

الافتراضية في صعـــدة. التجمـــع اليمني للإصلاح شـــعروا بالرعب، أدركوا أنَّ فرحتهم بإســـقاط علي عبدالله صالح وإعـــلان انهيار النظام كشـــف ظهورهم لعدو تاريخيٍّ يلتهم مقاطعات نفوذهـــم واحدة تلو أخرى. تشـــبث الحزب أكثر بالرئيس "عبدربه منصـــور هادي" كخيار الضرورة، ومضوا معه حيـــث مضى، غضبوا لغضبـــه، فرحوا لفرحه، ســـهدوا لسُـــهده، إنْ تعب قلبه ارتجفَت أوردتهم، وإنْ تكدر بعثوا إليه أبرع ظرفائهـــم، وإنْ تمنّى وجـــد، وإنْ طلب جاؤوه قبـــل أنْ يقوم من مقيله، وإذا أصابه الإمساك مسّـــدوا بطنه بزيت الخروع وجرّعوه خلطة أعشاب من عسل مصفى وحبّة سوداء مباركة. حوقلوا عليه بفقهائهم وقضاتهم ومشعوذيهم حتى يبرأ ويُشـــفى. ارتحل عدن فارتحلوا وراءه، ســـافر الرياض فألفاهم أمامه، يصعدون ســـلالم الطائـــرة، حلّوا أينما حلّ، وبركوا أينـــما برك، غنّوا له أجمل الأناشـــيد، علّقـــوا صوره فوق رؤوسهم، وعلى خلفيات هواتفهم المحمولة وبصفحاتهم الشخصية في وسائل التواصل الاجتماعي،كانوا ســـيفه وظله ودرعه واعلامه ولسانه ويده وســـلوة خاطره وبهجة أيامه وصفوة لحظاته وماء عينيه وغسول أصابعه، جعلوه الإمـــام والوليَّ والـــوصيَّ والمهدي والهـــادي والقائم والواقف والحـــاضر الغائب والرئيـــس والقائد الفذ. هـــو أيضًا أدرك سطوتهم وقوتهم وخبر ماضيهم مع سلفه وحُبّهم المال والنفوذ والحياة، رسوخهم في التعاطي الوطني مع الجمهورية كأساس مُطلق لبقائهم.

خسرهم "علي عبدالله صالح" في منتصف ١٩٩٧ وأزاحهم كلية إلى المعارضة، ثم سخر منهم في حوار متلفز، قال "إنه سخّرهم كأُجَراء وأحرقهم كورقة"!، هادي لن يتحدث عنهم -على الأقل أمام شاشة التلفاز-، سيمضي بهم حتى آخر يوم في حياته، ويحتضن رأيه عنهم في بُطينه الأيمن حتى يتورم ويقتله، ويمضي به إلى القبر. سيضمن على الأقل وفاءهم لذكراه. قدرتهم على تشنيع خصومهم تصيب أعتى السياسيين بالرعب. الذاكرة جزء مهم من حياة السياسي الأخرى، هاجس الخلود يُحدد طرائق قراراته وأفعاله. هكذا يكون الأمر في بلاد ما وراء الخليج.

سأل صحافي "اندنبدنت عربية" الرئيسَ عبدربه منصور هادي ما الذي يريد أنْ يقوله التاريخ عنه؟، بحلق "هادي" بعينيْن صغيرتيْن في وجه الرجل القادم من ضواحي اسكتلندا، رتّب كلمات سريعة في رأسه، قال بلهجة أبناء أبين -أنقلها مترجمة إلى العربية-: أريد أنْ يقولوا إنَّ عبدربه منصور هادي أسَّس اليمن الاتحادي وأزاح عنهم شر الحوثيين وأعاد الشرعية إلى صنعاء عاصمة اليمن الموحد. لوّح بكفيه وعدّل من جلسته على قائمتيْن ذهبيتيْن لكرسيّ من خشب غلفته بطانة قماشية حملت أشكالًا متداخلة لزهرة الأوركيدا، ونصف وجه لطير البلبل مُعلقًا على غصن شجرة، استطرد "هادي" في ختام إجابته وحواره: هذا ما أريده.

في اليوم التـــالي، نشر الصحافي الإســـكتلندي الأصـــل "مارك ســـولهان" على صفحته في تويتر صورة ســـيلفي التقطها بهاتفه، كشف عن نصف أســـنانه بابتســـامة مفتوحة، وخلفـــه بدا الرئيـــس عبدربه منصور هادي جالسًا متجهم الوجه، علّق الصحافي على الصورة قائلًا: "مع الرئيـــس اليمني عبدربه هـــادي منصور، يبدو أنـــه لم يكن مرتاحًا لأســـئلتي"، وأرفق في ختامها أشـــكال ايموجي الضاحكة. حصدت التغريدة خمسة آلاف إعجاب، وسبعمائة وخمسة وثلاثين تعليقًا، أغلبها ركّزت على عدم قدرة الصحافي على كتابة اسم الرئيس صحيحًا.

في منتصف ذلك اليـــوم، ظهرت جبال العود ملتصقة بســـحب رمادية، كأنها تنفث دخان بركان، أم أنها تُدخن نارجيلة بجمر من حجر يعلو شـــفقه المســـتعر من بعيد، لم تحجب أمطار ذلك الغروب الذهبي والشـــمس تضيع في منتهى البصر، هنـــاك وراء حقول النـــادرة، وراء قبعات الفلاحات، وقراقيش أطفالهنَّ، لوحة صامتـــة، هادئة، عميقة، حائرة، تأملتهـــا بعينيْن فارغتيْن مـــن النوم، يدي اليمنـــى تعبث بناقل الحركة، وقدماي تتشـــاركان معًا الضغط المتوالي على دواسات البنزين والمكابح والكلتـــش. صوت نفير الســـيارة لاندكروزر أيقظ ســـكينة هدوء حذر. ارتفعت أيدي بعض النسوة، وتوقف أطفالهنَّ عن السير، ظلوا يراقبون توغُّل سيارتي في طريق إسفلتي طويل ومتعرج، انحنيت بالســـيارة جانبًا، وشرعت في عبـــور طريق ترابيّ يقـــترب إليهنَّ. كنتُ

وحيدًا، وعلى رأسي شال كالح، ينتصب في المقعد المجاور سلاحي الآلي رفيقًا بلا رفقاء. توقفتُ وســألتهنَّ: لماذا رفعتنَّ أذرعكنَّ، هل ثمة أمر؟ تقدمت شــابة في الأربعين، أخفت نصف وجهها بقطعة ســوداء حفر الغبار عليها ملامح تشكيلية لحواف أنفها وفمها، عيناها مشدودتان إلى الصدغين، متباعدتين مثل ملكة فرعونية، وبياض ناصع يناقضه ســواد حالك لبؤبؤ العينين، قالت ممسكة بقبعتها المســتديرة: نحذرك فقط أنَّ هناك نقطة تفتيش حوثية أمامك!، اكتفيتُ بالنظر حيث تمتد أصابعهنَّ، واستدرتُ متســائلًا: وماذا في ذلك؟ أجابت فتاة أخرى كانت تتوارى وراء صاحبتهــا بصوت عشرينــيٍّ يافع: الحوثــة أولاد الكلب ينهبون السيارات التي تشبه سيارتك.

- أهاا، ما عليهم مني. أجبتُ

انطلقت الأربعينية في الحديث عن خالها الذي قُتل في مواجهات الرضمة مع الشــيخ القبلي عبدالواحد الدعام، قبل أربعة أعوام، وعن مآسي قُراهم، وعن أســعار الديزل الملتهبة، وتجنّي عائلات "الســادة" عليهم. كــررت وصفهــم بالـ"أشــطاف"، كانت كلما ذكــرت عبارة "شطف" يتلفت أطفالها إلى بعضهم، ثم يُقهقهون.

سألتها: مابالهم يضحكون؟

اســتدارت ضاحكة أيضًا: إنهم فقط يعرفون أنَّ كلمة "شطف" عبارة للسّباب في قريتنا.

– ومن أين أنتِ؟. سألتُها.

قالت بعينيْن أكثــر حذرًا: من بلاد الســدة، بلاد الشــهيد علي عبدالمغني. وصمتــت قليلًا: ثم اســتدركت ويدها تشــير إلى أطفالها بالتوقف عن الضحك: هل تعرفه؟

وكيف لا أعرفه، إنه الفتى الذي علّــق عمامة الإمامة على رأس ســهم وقذف بها إلى الجحيم. إنــه رجل الأهداف الســتة التي منحت اليمنيين أملًا وحبورًا وحياة، إنــه الذي مات مجهولًا في ضياع صراوح، غادر إلى أرض عاصمــة ســبأ الأولى، ولم يعُد. اكتفت كُتــب التاريخ الدراسي بنقل صورة غير واضحة لفتى لم يتجــاوز الـ ٢١ ربيعًا، قبض بكفيْه الصغيرتيْن جبال نقم وعيبان وخضهــا، أخرج براكينها وقذف الحمــم الملتهبة في طريــق عصابات الإمامة وجيوشــها لــمّا حاولت وناورت وحاربت لبلوغ صنعاء في اعقاب اطمئنانها إلى نهايته في الأيام الأولى لثورة صاغها بدمه. لم يكن ذلك ممكنًا، ولم يعُد مقبولًا أنْ ينحني اليمنيون مرة أخرى لشــكل عنصريٍّ مرتد عن قيم الحضارة وســلوك التمدن وأناقة الإنسانية ورِفعتها.

استدرتُ بسيارتي عائدًا إلى الطريق الإسفلتي، مشاعري المضطربة في تأييد الحوثي علنًا، يظهر نقيضها البشــع في خلوتي، يقول الشعراوي عن التقوى: إنها الخشــية من الله في السرِّ والعلن. لســتُ تقيًا للسيد، لا أخشــاه حين أغلق مصارع أبوابي على جنود حراســتي. وقد تركتُهم في

نقطة التفتيش على جانبي طريق قاع السحول. سحول بن ناجي. متقدمًا إلى تلك النقطة التي حُذِّرت منها للوقوف على شأن عاجل، أبرقَت عمليات الأمن الوقائي قبل ساعتيْن سرعة وصولي إلى هناك.

عشر دقائق، وبسرعة تتجاوز ١٦٠كم في الساعة، مسافة وصولي إلى نقطة التفتيش، أوقفتُ سيارتي بجوار مبنى مُستحدث من الطوب الرمادي على الجانب الأيسر من سارية معدنية تخترق منتصف الطريق الإسفلتي، يرفرف على رأسها شعار أنصار الله المعتاد، امتلأت واجهة المبنى من الخارج بصور قتلى الحوثيين، هذا عبدالرحمن المتوكل "أبو طه"، وذاك "مطهر السراجي" بلا كُنية، وآخر من عائلة الديلمي، عائلات متفرقة، الذاري، العماد، الكبسي، المروني، اللاحجي، أسماء كثيرة أيضًا تنتهي بلقب "الوشلي". تبعثَرت بضع سيارات على الطريق الترابية، ثلاثة أفراد يتولون تفتيش السيارات القادمة من الجانبين، على بُعد أمتار تختفي فوهة رشاش وراء أكمة متوسطة من التراب. صعدتُ درجتيْن، فتحتُ بابًا حديدًا زهريَّ اللون. سحابة من الدخان. صفان متقابلان من الرجال، أغصان القات مذبوحة على طول فرش الموكيت الأحمر. سلّمت على الحضور ورددتُ كلَّ عبارات السؤال عن الأحوال وعلوم الأخبار، احتضنني أبو حيدر في منتصف المقيل بحرارة، ربت كتفي ودعاني الجلوس في مكانه، رفع صوته قائلًا: هذا أبو عقيل، مشرف ذمار وهو اليوم أيضًا

مشرف إب بعد اصابة المــشرف أبو زيد شــفاه الله. تعالت أصوات الترحيب وبدأ المتملقون رحلة التعارف الســمج، اكتفيتُ بالابتسام، الاندهاش، رفعتُ حاجبيّ كثيرًا، تمتمتُ بعباراتِ الثناء.

أبو حيدر، كنية شــاب نحيل من منطقة آنــس في الجانب الغربي بمحافظة ذمار. اســمه الحقيقــي: عبدالإله المــروني، متعصبٌ عرقي، عرفتُه أول أيام جلوســه إلى حســين الحوثي في تنظيم الشباب المؤمن، بحلقات عِلم غــذّت مداركه ووعيه على معرفة تاريــخ مفعم بالثورية في المذهب الزيدي، كانت ملازم حســين الحوثي وهي مجموعة أوراق مُبســطة لتعاليم تُفسر جزءًا من آيات الله الكريمة وفق القاعدة الزيدية وبرؤية آل البيت الذين صارع "حســين الحوثي" فقهاءها الراديكاليين لبلوغ حالة الإمامة المشروطة في كتبهم، فقُتل دون ذلك. حازها شقيقه "عبدالملك الحوثي" في أعقاب الوفاة المفاجئة لوالده بخريف٢٠١٠.

بدرالدين الحوثــي العجوز القصــير بلحية بيضــاء كثة وأنف كمنقار بومة، تطلّع إلى خلافــة مجد الدين المؤيدي عــلى إمامة الزيدية قبل رحيله هو بثلاث ســنوات. مات العجــوز ولم يُحقق أحلامه، دُفن في جنازة مرتبكة. نقل موقع واحد خبر اصابته بشــظايا قنبلة انفجرت في سوق شــعبيٍّ كان يتجول في أزقته فتوفي متأثرًا بجراحه، الشائعات قالت أيضًا إنه مات بالربو. وقــف "عبدالملك" يصلي الجنازة على والده في العــراء، وراءه اصطفت أجســاد لا يبدو عليها التأثــر. أمامه سرير

خشبيّ على أربع قوائم قصيرة، ولفافة قماشــية ملونة بالأخضر تخللتها عباراتٌ قرآنية وأدعيــة مباركة، تحت كلِّ هذا كفن أبيض يلف جســد عجوز قصير يُساق على مناكب المشيّعين إلى حفرة عمودية بطول متريْن في قاعها غرفة مستطيلة إلى اليسار بمساحة فراش واحد بالضبط، حُشر بداخلها بدرالدين أميرالدين الحوثي. اســم أطول من صاحبه، سُدّت الغرفة بقوالب طين لازب محشــوة بالقشِّ، وتفنَّن حفّار القبور في سدِّ فتحاتها. طينٌ كالــذي خُلق منه آدم -أبانا الأول-، هناك في الأســفل، حيث بقي "بدرالديــن الحوثي" وحيدًا وســط ظلمة القبر، ســيعرف أنه كان يكذب في الأعلى، ســتتذوقه الحشرات وتســتطعمه القوارض والديدان، كل ما كان يقوله على مســامع الناس، في آذانهم، ويغرسه في عقول بقية طُلابه ومُريديه عن عائلته وسُــلالته المخلوقة من طين آخر "طين من عليّــين" محض هراء، المــوت هو الوجبة الحقــيرة لجيش من الكائنات المُقززة، نهاية الوهم، فشل الجسم في الدفاع عن نفسه، إزاحة الحشرات وقتلها بخُفٍّ مطاط، ملاحقتها بأدوات التنظيف والمطهرات، تلك وســائل من ماضي الحياة، أمّا الآن، في تلك اللحظة تتعلق الروح، تخرج الطاقة، ينطفئ الذات عن جسد مغرور، مريض ومعتل، تنسكب الروح العطنة من خلايا الجسم المثقل بالذنب وســوءات المتاع. مُعلّقة مثل مصباح في ســقف غرفة الموت، ترقــب انتقام أنواعًــا مختلفة من الحشرات لكل قتلاهم في الأعلى، على الســطح، فوق الأرض، أمّا هنا

في الأسفل. فابن "أميرالدين الحوثي" وجبة ثلاثة أشهر لكل شيء صغير وتافه، أين طينه المتعالى، أين عرقه الموهوم؟ أين فتاويه التي أشعلت اليمن، أين الإيرانيون يرفعونه إلى الله، جسدًا وروحًا. كل شيء كان يعرفه أمْ لا يعرفه هو كذبة كبيرة، فُقاعة انفجرَت بانسلاخ روحه عن جسد لم يأتمنه الله على بضعة سنتيمترات إضافية ليصير رجلًا كاملًا لا يثير سُخرية أقرانه.

بحلول منتصف ليل ذلك اليوم، رمى "عبدالملك الحوثي" جسده على سرير وثير بداخل قبو في منزل صديقه "صالح هبرة"، عقد كفيْه وراء رأسه، ثبّت عينيْه في سقف القبو، وأطلق زفرة حارة. تنهيدة نهاية ظافرة، اكتمال أحلام والده وشقيقه فيه، نيله إمامة الزيدية وتوقيع أكبر علمائها وثيقتهم الفكرية العلنية الأولى التي حدّدت بوضوح وصراحة توافق أبرز العائلات الهاشمية على مسائل الاصطفاء والولاية. باقي النصوص هراء للعامة والمتفلسفين. كل ما أراده هو حصرية الولاية فيه. ذلك أشبه بصَكٍّ مفتوح لتنفيذ باقي شروط الزيدية التي لم يستطع أخوه تحقيقها (طلب الإمامة بالسيف) لم يعُد إمامًا باطنيًا كما كان مجد الدين المؤيدي، إنه موجود وبقوة وبكلِّ العنف اللازم لتحقيق مجده في عُمره الثلاثينيّ هذا.

تحسَّس "عبدالملك الحوثي" ودبة ناتئة مغطاة بالشعر وراء إذنه اليسرى، كلما مسَّدها بأصابعه هدأت مشاعره وقلَّ اهتياجه، أغمض

عينيْه، شــاهد أحلامًا جديدة، صورته على غلاف صحيفة أجنبية، باب اليمن يبدو مقلوبًا ورأسه يدور إلى الأسفل، صوت سيارة تعوي أمامه وتتوقف عند حافة حاجبيــه. تحقق بهيئته المقلوبة من الســائق، بحلَق، رجلٌ سمين بلا عنق ولحية كثة وغباء واضح في سحنة تبدو عليها طباع بغل. يختفي كل شيء ويبدأ فصل ثان من الحُلم يرى نفســه سائرًا فوق الســحاب، يصيح لتحذيره. يلتفت، يحاول النطق، لا يستطيع، يقاوم، يجاهد، يفتح فمه عن آخره، يشاهد لسانه ســاكنًا، يرى سحابة صغيرة تدخل فمه إلى بلعومه، يمشي وراءها، تصل إلى معدته، يسد أنفه ويقفز، يتطلخ بالخرا، يلاحق الســحابة في الأمعاء الغليظــة، يقاوم عضلاتها، يخرج إلى الأمعاء الدقيقة يحاول تصغير جسده، بينما تمرُّ السحابة أمامه، يُقرر تفكيك جســده إلى قِطع ثم يمرِّرهــا قطعة قطعــة. أنفه، ذراعه اليمنى ثم اليسرى، عيناه، رأســه، أعضاؤه، مؤخرتــه بقيت عالقة في الأعلى، ضغط عليهــا بقدميْه، لا فائــدة. تركها هناك وأرســل رِجليه كآخر قطعتيْن، وصلت السحابة إلى فتحة الشرج. خرجت، لحق وراءها فأعماه ضوء كاشف.

فتح عبدالملك الحوثــي عينيْه على صوت تحذير، أعقبه إشــعال مصابيح ســاطعة أيقظته بعنف. تحسَّس جســده ولوهلة لم يتبين معنى عبارات محدِّثه الطويل الواقف على مقربة من سريــره، بينما دهمه عرق كثيف، وارتعاشة حُمى، كان الجسد أمامه يناوله شيئًا ما، سأل نفسه هل

مازلت أحلم؟. ضباب كثيف أعمى عينيه عن رؤية واضحة، هز رأسه. قاطعه الصوت هذه المرة:

سيدي.. اتصال من السيد حسن نصر الله، وناوله الهاتف.

في منتصف صيف ٢٠١٨، ظهر حسن نصر الله أمين عام حزب الله اللبناني في شاشة قناة المنار، وعلى رأسه عمامة سوداء كبيرة وجلبابًا أسود كعادته. وراء ظهره حائط أزرق داكن، هذه المرة لم يكن شيئًا مكتوبًا إلى جواره في كادر الصورة. لا ذكرى وفاة الحسين ولا محمد الباقر، ولا يوم القدس. فقط، ظهر بلا مناسبة، ألقى نكتة على المشاهدين يُكذّب فيها أخبارًا بثّتْها قناة العربية عن قصف طيران التحالف العربي لمناطق حدودية بين السعودية واليمن، أسفرت عن مقتل عناصر من حزب الله في صعدة. أكد أيضًا معلومة كانت مدرَجة على لائحة الأخبار غير المستندة إلى دليل. اعترف أنه أرسل عناصر مدربة من حزبه إلى اليمن للمشاركة في الدعم اللوجيستي الشامل للعناصر الحوثية في معارك الحديدة المشتعلة بين قوات المقاومة الوطنية الحكومية وميليشيا الحوثي. قال: "إنَّ امتداد التعاون بين حزب الله وأنصار الله وصل حدّ أمنيته القتال في ساحل اليمن الغربي تحت إمرة "السيد المجاهد عبدالملك الحوثي".

في ذلك الاتصال قبل ست سنوات، تسرَّب صوت حسن نصر الله إلى أذن عبدالملك الحوثي بعبارات مشابهة، قال "إنَّ بداية جديدة في

عهد الحوثية بدأت بتوقيع الوثيقة الفكرية"، قال: "إنه اضطر إلى طلبه في تلك الســاعة لنقل تبريكات الإمام علي خامنئي ودعمه المطلق لتحقيق تطلعات إيران في المنطقة". عبدالملك الحوثي كان منشــغلًا بتفسير حُلم السحابة وانغماسه وســط فضلات أمعائه، أجزائه المُقطّعة. استعاد وجه سائق السيارة، اعتصر تفاصيل أقوى، وشيئًا فشيئًا أدرك أنه ابن خالته: محمد علي الحوثي "أبو أحمد". مَن أدخلــه إلى أحلامي؟ حكّ عبدالملك رأسه وملامحه مطرقة منصتة بخشوع لصوت "حسن نصر الله". لم يدرك شيئًا مما قاله، سوى عبارة واحدة ابتهج لها متحسسًا روعة إنجازه "والله وفعلتها ياحربوق"، قالها حســن نــصر الله وأعقبها مقهقهًــا. ثم حياه بعبارات قصيرة وانتهى الحديث.

بعد أيام، دخلت مزرعة صالح هبرة، مبان متفرقة، إســطبل في الفناء الخلفي لعشرات الأغنام، قنّ دجاج، حشــائش، أشــجار رمان مصطفــة على طريــق العبور الرئيــسي نحو مبنى حديــث وضعت في واجهته صورتيْن لحسين الحوثي وشــقيقه عبدالملك. جسور من الحجر الأســود والرخام الأبيض على نوافذ مغطاة بشباك حديدية تتخللها مع القمريات الملونة جسورًا إسمنتية مســاندة. تخطيت عتبة الباب، ألفيتُ "أبو علي الكحــلاني" واقفًا في البهو البارد، صافحني، دخلنا ســويًا إلى غرفة مقيل اســتخدمت قاعة انتظار، تعمدَت إبداء الدهشــة، وجهَت تساؤلًا لطّفته بابتســامة ضاحكة: هل يسري الانتظار عليّ أيضًا. ربت

المرافق الشـــخصي لعبدالملك الحوثي ظهري، بادلني ابتســـامة باهتة بلا معنى، قائلًا: التعليمات على الجميـــع. رفعت حاجبيّ عن آخرهما، قلتُ في ثقة: لكني أنا شـــاهين والأمر يختلف. لم يُعلق. فقـــط نظرني بعينيْن نصف ناعستيْن يقترب سوادهما إلى بعضه فيما يشـــبه حولًا طفيفًا. نزل درجًا من الحجارة بشكل أفعواني إلى الأسفل. بعد دقائق كنتُ في حجرة عبدالملك الحوثي.. جلسنا ساعتيْن، ثم غادرتُ إلى السجن.

– ٥ –

لم يكن اســمي شــاهين أول ما خُلقت، قالت أمــي قبل انتزاع روحها الدافئة إنَّ أبي ســمّاني "سـلّال"، ثم اختلى بمداعته النحاسية في غرفة الجلوس، أخرج من أنفه دخانًا كثيفًا، مرة ثانية، ثالثة. ثم اســتدار إلى أمي "سنسميه القردعي"، بعد أسبوع أُصبت بالحمى المالطية، قالت زوجة دوشــان القرية لوالدي حــين رأته قلقًا على حيــاتي، أنْ يصطاد عصافير كل يوم ويعصر لي مرقَها، فإنْ لم أُشفَ، فليخرج مترصدًا صقرًا بريًا. قَتَل والــدي أغلب عصافير القرية، بقية العصافير أحسَّــت خطر الفناء وهاجرَت، رحلت مــن وكناتها إلى أرزاقها، ونجت بنفســها، لم يعُد ثمة صوتٌ يغرد في غبشة الصبح الندي، عواء ذئب يأتي صداه من جبال مران، تجاوبه ذئاب أخرى، بينما تنضــم كلاب قريتنا أيضًا بنباح يمزق أستار ليل بلا قمر. في أعقاب خسارتنا ثلثي مخزوننا من الدجاج التي استخدمهنَّ أبي كطُعم لصيد إحدى الصقور الهائمة في فراغ قريتنا المثقل بطقس متقلب، حيث غابت الحدأة وراحت الصقور مسلكًا آخر لا يحوم حول ســمائنا، ربما حذرتهنَّ العصافير المهاجرة من رصاصات والدي. لكن.. وفي صباح ١٧ يوليو، بينما كان علي عبدالله صالح يقسم

اليمين الدستورية أمام حشد من أعضاء مجلس الشعب التأسيسي لتولي منصب رئيس الجمهورية، أســقط والدي صيده، هوى الصقر كحجر، ارتطم بعنف على مقربة من شــجرة كافور، علّقه أبي على فوهة بندقيته المخصصة للصيد ورفعها إلى أعلى سائرًا وسط الحقول، متجاوزًا منزل جارنا "بدرالدين الحوثي"، وعلى شــفتيْه ترنيمــة: اللي ما يعرف الصقر يشــويه. طبخَت والدتي الطائر الجارح، أثقلت المرقــة قليلًا، وناولتنيه كحساء بملعقة نحاســية مبلولة بماء زمزم. هكذا شفيَت، وصار اسمي "شاهين" ترحمًا على الصقر الذي تخللت عصارته مسام روحي.

في منتصف موســم أمطار غزير لصيف العــام ١٩٩٠، وقفتُ على حافة حائط الســطح في منزل أبي، فردتّ ذراعيّ كجناح طائر بللتْه السماء. صرختُ منتشيًا، اجتاحتني رغبة القفز، معانقة الفراغ والتحليق في الأعلى، كنتُ مهووسًــا بالفيزياء، مهووسًــا فقــط، أفكر في اختراع آلة الزمن، والطيران مثــل: غرانديزر، توجيه الضربــات الصاروخية للأشرار، والعودة مظفرًا بالنصر إلى قاعدة العمليات الحربية "السرية". على بُعد أمتار بالقرب مــن باب حديدي صغير ينفذ إلى ســلالم المنزل العلوية. جلس عبدالملك الحوثي متحصنًا من المطر، ضاحكًا ومستهزئًا بي، صفّق لجرأتي على الوقوف بتلك الحافة الخطرة، لم ألتفِت إليه، كنتُ أســمعه يصيح محفزًا: هيا اقفز يا عباس بن فرناس!. شيء ما في داخلي كان يأبــى أنْ أتراجع، أنْ أظهر مخذولًا أمامه، ســيجعله مادة رئيســة

يهزمني بها عند كلِّ لقاء يجمعنـــا، لن يتركني دون أنْ يفلســـف الأمر، ويحوّره، ويعجنه بمزيج ســـخريته وتهكُّمه. جاءني صوتـــه مرارًا: هيا اقفز، كررها وأعادها، إنْ كنتُ مجنونًا فقد كان أنانيًا بشـــعًا، يعرف أني سأســـقط وقد ألقى حتفي، لم يخشَ عليّ تبعات قرار أهوج، متهور وأنا صديق طفولته وصباه، رفيق رحلته وكاتـــم أسراره، وأمين لحظته. كل ذلك ليس له وزنٌ في قاموسه، أراد أنْ يعيش لحظة الزهو بخداعي، وإنْ كُسِر رأسي ودُقَّ عُنقي.

أقلعَت الســـماء فجأة عن المطر، وغزا شعاع شـــمس دافئ هواء قريتنا. اقترب نســـيم لطيـــف يداعب كنـــزتي المبللة فشـــعرتُ بالبرد، ضممتُ يدَيَّ حول صدري كمَن يحتضن دفئًا مفقـــودًا، انحنيتُ قليلًا إلى أســـفل، أنزلتُ رِجلي اليمني حتى اســـتقرت بقاع السطح، وقفزت باليسرى إلى أســـفل. سِرت في خطوات مرتجفة من الـــبرد إلى صديقي النذل، يضحك، يُعيرني "ياجبان"، يقهقه، مطَّ شـــفتيْه ورفع أصابعه إلى أعلى متهكمًا "طالما لستَ قادرًا على البطولة لماذا تحاول أنْ تظهر كبطل"، تغضَّنَت ملامح وجهي، شعرتُ بقلبي يقفز إلى رأسي كرصاصة ثائرة، تدفق الـــدم إلى أوداجي، أوردتي، شراييني، شـــعرتُ بحرارة تخرج من فتحات مســـامّي الدقيقة جدًا، مثـــل كاوية بخار، جمعـــتُ كلّ شيء في أوعيتي، في معدتي، حنجرتي، لساني، فمي. وحدث الانفجار: صحت بصوت هادر "أنت أناني ســـخيف تافه وحقـــير، كان عليك أنْ تمنعني

من تهوُّري، ماذا ستفعل إنْ كنت قفزت وانتهيت ممزقًا، هل كان ذلك سيرضيك أيها النذل، هاه. قل لي هل هذه هي الصداقة أيها البائس الشطف؟". بُهت الفتى، تسمّر، انهار متأثرًا، احتقن وجهه، واستحال أحمر حنقًا، امتلأ جوف مآقيه، ارتعش بياض عينيْه، سال الدمع صامتًا على خديه، يتأملني غير مصدق ما قلتُه، مستنكرًا ومستغربًا، متعجبًا ومجروحًا. بعد لحظات كان نشيجه واضحًا. يمسح مخاط أنفه بظاهر كفه ثم يمسحها على جلبابه الأصفر. حينها هدأت ثائرتي، كأنما اندلق كأس ماء بارد على جمر غضبي فأطفأه، شعرتُ بذنب فادح، رقَّ قلبي، وتبدّل وجهي إلى ابتسامة عطف، اندفعَت نحوه بذراعيْن مفتوحتيْن، استدار بكتف عدائية، رأسه مُطرق إلى أسفل، ودمعه غزير، احتضنَت رأسه وشرعتُ في تقبيله، جمعتُ كل عبارات الأسف المذكورة في القاموس المحيط، حتى هدأت حشيته، وبادلني ابتسامة خجلى، طوّقتُ ظهره بذراعي ودعوته إلى النزول لبهو المنزل ومنه إلى لعب كرة القدم في الطريق الترابيّ الفاصل بين منزل أبي ومنزل أبيه، رافقني صامتًا، وبينما نحن خارجان، استدار بخطوات متسارعة نحو منزلهم، ناديته، لم يلتفت، سألته "ما بك؟" لم يجب، عاتبته "لا تكن حاقدًا"، اقترب من عتبة دارهم، صحتُ "أنا آسف"، صفق الباب وراءه، قبل أنْ تسأله أمه لِمَ يبدو عليه التأثر، سألها: لماذا يصفنا القبائل دومًا بـ"الأشطاف"؟ ارتدَّ رأس أمه إلى الوراء كمَن يحترس من هجوم مباغت، أعادت تثبيت

حلقة شَعرها المطاط، وربتت على مساحة فارغة بجوارها في مجلس أرضيٍّ بأربع فرشات قطنية بالية. تقدم إليها بخطى حزينة. جلس حيث أشارت، أخذت رأسه إلى صدرها، سمع صوت أنفاسها، وحشرجة طفيفة على مجرى حنجرتها إلى قفصها الصدري، كانت جالسة إلى متكأ في الجانب الأيسر من نافذة عريضة بإطارات خشبية ملساء تُطِل على الفناء الواسع بمساحة نصف ملعب. شجرة التين الوحيدة ترفّ بأوراقها وتحجب جزءًا من ضوء شمس ما بعد المطر. دقات عقارب ساعة عتيقة على هيئة بيج بن. هديل حمام في عش رغد بكوة مفتوحة إلى الخارج. الأم تمضغ قاتها المغسول بعناية، رصفَت أعواده بإتقان في كيس شفاف أحمر، أمامها في منتصف الغرفة، انتصبت مداعة نحاسية كمأذنة وقت صلاة الفجر، وضعَت على فوهتها بوري من الفخار على هيئة قُمع، حشته بورق مبلل من تبغ مستورد، وعمّرت عليه هرمًا صغيرًا من الجمر المتقد كأحجار ياقوت كريم، كلما سحبت إلى صدرها دخانًا من القصبة الحلزونية المصنوعة من القشّ وهيكل الحديد، يضيء الجمر ظلام المجلس الهادئ كبركان تطفو حممُه من قمة جبل غاضب. مسدَت الأم رأس وليدها، داعبَت ودبة حديثة وراء أذنه اليمني، فأسكنته، وطفقت تحدثه بهدوء. أذناه مفتوحتان، عقله متحفز، سمعه مُصغٍ، قلبه ساكن، يتشرب همس والدته في خلاياه، عظامه، نخاعه، أوردته، شرايينه. كما تخلل حساء الصقر مسام حياتي، وجعلني صبيًا من فئة الجوارح، قالت:

" بُني.. نحن هاشـميون، عليك أنْ تحفظ هـذا الأمر جيدًا، أنْ تتصرف في حدوده وإطاره ومسـتواه الرفيع، شرف العِرق الذي تنتمي إليه يثير غيرة القبيلي، وحـين لا يجد أصلًا يرفعه إلى مسـتواك ينحدر بشـتمك، إنهم نواصب على دين معاوية إبن آكلة الأكباد. لكنها ليست أيامنا، لقد تولوا الحُكم والسـلطة، وها أنت ترى فسادهم وعبثهم، هنا في صعدة يقولون لك يا سـيد إنْ كنت معهم في وئام، ثم يخلعون عنك كل تشريف خصك الله به فيوصمونك بأوصاف قبيحة، وهذا أمر ليس فيه أيّ تعظيم لنا، نحن آل البيت".

وحديث طويل، سؤال منه وإجابة منها.

عند صياح الديك، أيقظ بدر الديـن الحوثي نجله عبدالملك. في طريقهما إلى مسـجد القرية، أفصح الأب عن نيته إرسـاله لتلقي "العلوم الشرعيـة" في حلقـات درس مجدالدين المؤيـدي، ومحمد عبدالعظيم الحوثي.

وأردف بحسم "هناك سـتجد كلَّ إجابة عن أسئلتك". حين اسـتدار عبدالملك ناحية أبيه وهز رأسه مستسـلمًا، شاهد بدر الدين توهُّجًا في عينيْه، بريقًـا لامعًا، من أعماق بؤبؤ العـين انطلق البريق كشعاع، مثل مصباح ليزر نافذ، توهج في غبشة الصبح، والشمس لم تزل في عرجونها متوارية وراء سلسـلة جبال بعيدة على امتداد وادي مران الأسمر.

في اليوم الثالث، رأيته جالسًا على مصطبة دارهم، ينكش التراب بعصا قصب، يحاصر نملة ممتلئة، يحفر لها أخاديد، قبضَت على عصاه بإبهام قدمي والسبابة، رفع رأسه إلى الأعلى وكفه اليسرى على جبينه كمظلة، ابتسمَت. علّق ببرود "متى سترتدي حذاءً؟". لاحت في طرف شفته ابتسامة ساخرة. ضحكت عاليًا، رفعته من ذراعه وأرغمته على مرافقتي للتنزه. اعترفت أني افتقدتُه كثيرًا، وأنَّ إخوتنا تُلزمني مراضاته حتى يشفع ويغفر. بعينيْن مغروستيْن في الأرض، وبصوت بارد قال: لستَ أخي!، اتخذت موقفًا دفاعيًا، واندفع السؤال على هيئة استنكار: ماذا؟، أجاب بحزم: لستَ أخي، لأنك لو كنتَ أخي لكان اسمك شاهين بدرالدين الحوثي، أو لربما لم تكن شاهين أصلًا. انتزعني تعليقه من تسامحي، أربكني، تأتأتُ قليلًا، بحثت عن ردٍّ مقنع، آه: قال الله: إنما المؤمنون إخوة. تبسّم بمكر مُسددًا ضربة خطافية خطيرة: المؤمنون الذين ماتوا، أما اليوم فلم يعُد لهم وجود إلا بعدد الأصابع. تحول النقاش إلى تحدٍّ، بحثت عن كلِّ شيء قرأته، عن كل عبارة حفظتها عن أبي، نبشت كل خُطب الجمعة التي سمعتها من خطيب الجامع، اشتعل عقلي بطاقته القصوى، دُرت عند كل خلية، تحت كل شريان، وراء كُثبان المخ وتلافيفه. فلم أجد. قررت إعلان هدنة بتغيير مجرى الحديث، ورميت الكرة إلى ملعبه: من أين لك هذه الأفكار. ماذا حدث، مالذي جرى لك، أكل هذا لأني أغضبتك قبل يومين؟. لوَّح

بكفه في المسافة الفاصلة بيننا " لا، لا عليك"، قال وعيناه تسددان نظرة ثابتة إلى عينيّ "أنت تعرف قدْر محبتي، عيناك المليئتان بلون الفيروز شيء لا يصدق، حين أراك أشــعر بامتداد البهجة، لكني رضختُ لقرار أبي بالرحيل إلى ضحيان".

- ومتى تغادر؟. سألته.

- قريبًا، ربما في الغد.

في مثل تلك اللحظات، يتحول رحيل صديــق بمثل هذا العُمر إلى مشهد بكائيٍّ، تندفع مشاعر التأثر، تضطرب، يحضر العناق، ويُصبح الفقد هائلًا والخســارة فادحة، ســبعة عشر عامًا في فناء واحد ومنزلين متجاورين كوّنــت هذه الصداقــة اللصيقة، فلم يكن يُــرى أحدنا إلا ويتبعه الآخر كظلــه، حتى في العداوات نتقاســم الضربات واللكمات في شجار مع صبية القرية، كان الشــجار يبدأ بتعليق سخيف على لون عيني، دائمًا ما كانت عيناي مصدر كل النزاع. أتذكر كف عبدالملك على وجنة قريبة "محمد علي" في سوق الطلح، قريبًا من مفرزة راعي أغنام من برط، قبل عيد عرفه بسبع ســنوات، كنت واقفًا أنتظر فرصتي لركوب غنمة شاردة، قبضت على صوفها، رفعتُ رجلي اليسرى ولم أكَد أجلس على ظهرها، حتى أطاحت بي يد غليظــة إلى الأرض، جرحت جبهتي وانثال الدم سريعًــا. نهضت مسرعًــا لأرى غريمي واتخــذت وضعًا قتاليًا، كان "محمد علي الحوثي" ببدانته المفرطة واقفًا يرســم على شفتيْه

ابتسامة واسعة، بليدة مُقززة، مســتفزة، أشعلت خلايا الدم البنفسجي في رأسي، وقبل الاشــتباك، امتدت يدٌ من العــدم وبطحته أرضًا بكفٍّ كالصاعقة، انتفض البدين من بطحتــه ويده على خده وفي عينيْه ذهول، ثم.. انفجر بالبكاء. وشرع يخذفنا بالحجارة، فعدونا هاربين. من بعيد.. احتضن كلانا عنق الآخر ومشــينا متلاصقين كتوأم سيامي من الكتف إلى الكتف، كان الســوق يغيب مــن ورائنا، وعــلى الرصيف القريب من شــارع ضحيان العام، أقلَّتنا شــاحنة زرقاء "دايهاتسو" في مؤخرتها المكشــوفة، فتحنا ذراعينا للهواء، قادتنا الشــاحنة من مرتفعات الجبال الصغيرة، عبرنا وديانًا وحقــول، مررنا بجوار بيوتــات متفرقة، قلّدنا صوت الحمير، عــواء الذئب، زقزقــة العصافير، اقتربنــا من حيدان، طارت السيارة في الوادي الفسيح، طار شَعري الطويل ورائي، مددتُ ذراعي عن آخرهما، بدوت كطائرة الشــبح، مثل طــاووس مُحلق، وفي عيني عبدالملك نظرة إعجاب ما زلت أتذكرها بوضوح.

هزمني صوتي وتهدج: هل هو الوداع إذن.

عانقني. ربت ظهري، تراجع قليلًا إلى الوراء، تأمَّل عينيّ بامتنان غامض، ثم عانقنــي مرة أخــرى، تخللت أصابعه شَــعر رأسي، عبث بخصلاته قليلًا. جاء صوته من وراء أذني: ســأعود في الشــتاء!. حين عاد، كان أصفر مثــل كَوْرَبا، باردًا مثل جليد، تمثالًا بلا مشــاعر، زائغ العينين، لكأنه عاد من رحلة البحث عن ملك الخواتم أمْ كان في معركة

مع الموتى بجيم أوف ثرونز ـ الأمر الذي أغاظنـــي أنه اتخذ "محمد علي الحوثي" صديقًا مُقربًا، في الليلة الأولى لرجوعه، بعثت إلى هاتفه رسالة نصية، كتبت: أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير. وصلني إشعار التسليم. ولم يصلني شيء آخر.

في ضحيان مسجدٌ قديم، مصبوغ بالجصّ من خارجه، في ساحته المرصوفة بحجارة ســوداء مقامٌ أبيض، مكعب الشــكل بقبة صغيرة، يرقد في أحشــائه رجل دين اســمه الحسين بن الحســن الحوثي. حوله يدور ثلاثة عُميان يســتذكرون آيات القرآن الكريــم كل عصرية حتى يدنو الغسق، استشــعارهم الداخلي باقتراب أذان المغرب يثير العجب، على بُعد خطوات مــن المقام، بــاب قصير يؤدي إلى جوف المســجد. جذوع شجر أسطوانية متعرجة تسند سقفًا من ألواح خشبية مسطحة، محراب مصبوغ بالجصّ، ســجاجيد كبيرة بالية، في الزاوية اليمنى أريكة ضخمة مغطاة بفرش ثقيلة حمــراء. في أعقاب كل صلاة مغرب، يجتمع نفر من الطلبة المريديــن الريفيين إلى مجد الدين المؤيــدي لتلقي العلوم الشرعية ودروس في الصرف والحســاب، المؤيدي عجوز أبيض مُشع بجلباب أبيض وعصابة بيضاء على رأســه، مهيب الطلعة، وفي أصابعه تجري ســبحات من حجر اليُسر الثمين حملها معه مــن الحجاز في ربيع حياته. السبحة نقشــها رئيس مشغولات مكة بنفســه. هي لازمة مجد الدين المؤيــدي الأثيرة، جزءٌ منــه، لم ينفرط عقدها يومًــا، خيطها من

الحرير الكشميري الخام. فصوصها الصغيرة جدًا من الياقوت والعقيق الإيراني والذهب، كانت سِبحة أسطورية، وكان مجدالدين المؤيدي يعتز بها ويؤثرها على عديد مقتنياته الشخصية. حولها دارت الحكايات، وجرت الشائعاتُ على ألسن الفلاحين البسطاء، قالوا إنها كانت لزيد بن علي في جلباب سترته، ولما ألقاه هشام بن عبدالملك في النار توجَّهت السِبحة، فسأل هشام وزيره: ماهذه؟ قال إنها كانت سبحة علي بن أبي طالب، فأستأثرها هشام لنفسه، ثم طارت بعد نصف قرن إلى العباسيين، ثم اختفَت في عهد التتار، وخرجت في زمن العثمانيين سبحة شخصية لسليمان القانوني، وصارت بعد قرن في يد الشريف حسين -حاكم الحجاز يومذاك-، فرآها الملك الإدريسي وأعجب بها، فناوله، ثم ألفاها سيف الإسلام أحمد حميد الدين في قصر حاكم صبيا الإدريسي خلال حرب ١٩٤٣، وناولها والده الإمام يحيى فجرت بين أصابعه زمنًا، حين رأى شابًا من هجرة برط بالجوف توسم فيه الإمامة، وضع الإمام يحيى السبحة في كفه وأغلق عليها أصابعه، قال: ما اسمك؟ أجابه الشاب: مجدالدين المؤيدي، هزّ الإمام ذراعيْه بقوة قائلًا: الزَمها واحفَظها فإنها مُباركة. ومن لحظتها وطوال ثلاث وسبعين سنة لم تفارق المؤيدي دقيقة واحدة حتى فارق الحياة في ٢٠٠٧.

في مغرب ثلاثاء الهزيع الأخير لعام ١٩٩٥، جلس ابن بدرالدين الحوثي إلى حلقة درس سيده مجدالدين، الطالب الجديد يعرف الكتابة

والقراءة، وله شأن بسيط في الحساب، أبعده والده عن مدرسة حسان بن ثابت بعد نشاط نصف سنة، مناهج الدولة التي أقرَّتها وزارة التعليم لم تكن منصفة ومليئة بأفكار الوهابية والإخوان، شقّ على عبدالملك ابتعاده، صاح باكيًا بهياج أفقد والده صبره، أخذه من قفاه ودفعه إلى غرفته، أغلق الباب، وأخرج من الدولاب الخشبي الأصفر عصا خيزران بطول متر، لم يضربه، بل جلدَه، كما يُجلد الزاني، ربما ١٠٠ جلدة وأكثر. كان "يُطهره" من كلمات المناهج الدراسية التي علقت بذاكرته، أخرجها دمًا وحبائل سوداء وزرقاء، نقش على ظهره وساقيه وذراعيه مخططًا دمويًا، ثم تركه ينتحب، ومضى إلى سوق مران. جلب ثلاثة كيلو لحم من حانوت جزارة "حمود صابر"، وأمر زوجه بسلقها وإكثار الحساء. في الغداء أعطى عبدالملك كيلوين، وأكل الكيلو الثالث. عبدالملك كان مُقطعًا من الداخل، ممزقًا، مُهانًا، مكسورًا. حين شرب الحساء بفم مرتعش من البكاء والألم، قال في نفسه: هذه الرشوة غير مقبولة. حين عضَّ بأسنانه أولى قطع اللحم أقسم على الانتقام من والده.

تنحنح مجد الدين المؤيدي في كرسيه العالي، فتح كتابًا كبيرًا وضِع قُبالته بعناية على حمّالة نحاسية، قلّب صفحات الكتب ببطء مرددًا البسملة والصلوات. نظر بعين المعلم من أقصى اليسار إلى اليمين، أجرى بعينيْن شبه مغمضتيْن مسحًا على الطلبة الجالسين تحت عرشه

الديني مشرئبّين بأعناقهــم باندفاع صِبية. عددهــم يتجاوز العشرين. عبدالملك الحوثي جالس إلى جذع عمود مــن الحجارة، وفي حِجره قلم ودفتر بأربعين صفحة مُســطّرة. بعينيْن حجريتيْن وجسد يابس. وصل صوت مجد الديــن المؤيدي حتى أذنيه، دار في تجويف القناة الســمعية. اهتزَّت لــه طبلتيه، عبر القنــوات الهلالية، لامس العصب الســمعي، انطلق الصوت إلى الدماغ على هيئة إشــارات حسّــية. لم يستطع الجزء المســؤول عن الإدراك في مخ عبدالملك الحوثي فهم شيء مما يتحدث به العجوز الأسطوري صاحب السِبحة الأســطورية إمام الزيدية الخفيّ. أحسَّ عبدالملك أنه غبيٌّ، أمْ أنَّ طبيعة المعارف التي يتلقّاها تلك اللحظة كانت أكبر من تصوره ووعيه وفهمه لمفاتيح الفقه الزيدي، سأل نفسه: ماذا تعني العبــارات التالية: إمامة البطنين، الخُمُس، النســيئة. الغدير، الولاية. ما هي أرض فدك؟، ما الذي حدث في سيقفة ابن ساعدة؟ أين هي صفين؟ ما معنــى النابغة؟ الرايات الحُمر؟ تدفقَت أســئلة أخرى، دوّنها في صفحات دفتر الــدرس الجديد. في اليوم التــالي أفرد صفحة للأعداء الذين يبغضهم معلمه، بمرور شــهر كان قد كتب هذه الأسماء في خانة (الحاقدين على آل البيت): أبوبكر الصديق، عمر بن الخطاب، عثمان بن عفان، معاوية (وضع تحت معاويــة أربعة خطوط) عمرو بن العاص، يزيد بن معاوية، خولي بن يزيد الإصبحي، شمر ذي الجوشن، عبدالرحمن بن ملجم المرادي، هشــام بن عبدالملك، عــلي بن الفضل،

نشوان الحميري، أبوالحسن الهمداني، عبدالله السلال، الشوكاني. بعد فترة أدرك أنهم ليسوا على قيد الحياة، في أعقاب مقتل شقيقه حسين الحوثي بالعام ٢٠٠٤، أضاف لائحة أخرى من الخصوم الأحياء: علي عبدالله صالح، علي محسن الأحمر، حميد القشيبي، عثمان مجلي، صغير بن عزيز، يحيى العمري، سلمان رشدي، ثابت جواس (وضع تحت جواس خمسة خطوط بالقلم الأحمر).

ابتاع عبدالملك الحوثي دفترًا جديدًا بستّين صفحة، قسّمه إلى أجزاء، أفرد لكل جزء عشر صفحات، ثم وضع عناوينَ لها، الجزء الأول: النواصب، الجزء الثاني: أعداء آل البيت، الجزء الثالث: الصحابة المنتجبون، الجزء الرابع: بني أمية، الجزء الخامس: الوهابية، الجزء السادس: الجمهورية. في الجزء الأول، في الصفحة الأولى: كتب الرقم واحد، خطّ دائرة حول الرقم، وكتب على يمينه اسم "شاهين عبدالحميد السبئي". معاوية بن أبي سفيان كان الرقم اثنين، ابنه يزيد الثالث، الرقم مائة كتب اسم عبدالمجيد الزنداني. في منتصف رمضان الذي يليه، أخرج الدفتر من مخلاته، فتح الجزء الأول. بقلم أسود سائل شطب اسم شاهين، وأبقى اسم والدي عبدالحميد السبئي.

حين التقيتُه في قبو مزرعة "صالح هبرة" كان قد اخترع قائمة أسماها "الرماديين"، وكتب اسمي بحروف مُقطّعة، كان يجلس محنيًا على حافة السرير، يدور حول خاصرته حزام مُذهب وجنبية عريضة،

كرشه بارزة، جســـده ينتفخ كل يوم، وفوق رأسه حيث ينام صورتيْن، واحدة لشقيقه حسين والثانية لآية الله الخميني، وبينهما صورة متوسطة لعلي خامنئي المرشد الإيراني. اســتدار نحوي، ابتسم، وقف. عانقني، قال: ما تزال عيناك شيئًا لم أرَ مثلهما قط. ابتســـمت مُعلقًا بمرح: كيف ســتجد شــبيهًا لعينيّ وأنت تدور من مران إلى ضحيان؟. علت وجهه أمارة ضيق لجلافتي. رفع ســبابته مُحذرًا، قال: أهااا، لم أعُد ذلك الفتى الذي عرفته عند شــجرة كافور. أعقب عِبارته بغمزة. ولم يبتســم. دار حولي مسترسًــلا: أنا اليوم حققت حُلم أبي وأخــي وأجدادي، صِرت إمامًا لكل الزيديــة، وعليّ أنْ أحيط ذاتي وصــورتي هالة من التقديس، مزيجًا من الورع وكثيرًا من القســوة. ثم سكت. توقف ورائي، شعرت أنفاســه تقترب، جمع خصلات شــعري من الخلف، رفعهــما إلى أعلى كاشــفًا قفا عنقي. قرّب شــفتيه، همس في أذني اليمنى بصوت جاء من أعماقه: كل شيء كُنت تعرفه عني، ما أحبــه وأكرهه، مواقف طفولتي، كراهية أبي، أحقاد خــالي، تلصُّصنا معًــا على نوافذ حمامات النســاء، ســيرتي، أخطائي، انحرافاتي، كل شيء تعرفه أو لا تعرفه، ســمعتُه أو رأيتُه يبقى في معدتك. قالها وضمّني إلى صدره بقسوة، غرس مخالبه في بطني. انكمشــت في مكاني. تأوّهت، حرّرني من قبضته، وعاد يطوف حولي، قال: هل تعلم مــاذا قال جدّي رســول الله؟ لم ينتظــر إجابة، وأردف مســتطردًا: "إنَّ الله أنزل قطعة من نور، فأسكنها في صلب آدم

فســاقها حتى قســمها جزءيْن، فجعل جزءًا في صُلب عبدالله، وجزءًا في صُلب أبي طالب، فأخرجني نبيًّا وأخرج علي وصيًا". وعاد يســأل، ينفخ ذلك الوهج الذي تورم في عروقه، مُتحسسًــا جبينــه عَلّه يُضيء ذلك القبو اللعين، كان صوته مُختلفًا، خطيرًا، حادًا كشــيفرة موســى، كنصلة خنجر، فتاكًا، كان يعوي كذئب، ينفــش ألوانه مثل طاووس. قال: أما جبريل فقــد صارح جدّي النبي العظيم قائــلًا "يا محمد قلّبت مشــارق الأرض ومغاربها، فلم أجد بني أب أفضل من بني هاشــم". تركني واقفًا. شعر باستســلامي، إذعاني لما يقول، وعاد لجلسته، أسند ذراعيــه إلى منتصف السرير ومــدّ رجليْه في الأرض عــن آخرهما. هزّ رأسه وعلى شفتيه ابتســامة منتصر، فاجأني بســؤال ماكر: ما قولك في ولاية الإمام علي عليه الســلام؟. آه، هذه العقبة المتســائلة يعرف رأيي عنها منذ زمــن، ترددتُ في إجابته، أعرف أنه ســيغضب، رفع رأســه إلى الأعلى في إيماءة انتظار الرد، قلتُ محافظًــا على هدوئي: تعرف رأيي عنها. هبّ واقفًا على قدمية كمَن لســعه عقرب، اقترب بشدة حتى كاد يلاصقني، نظر إلى عيّني، اخترقهما، رائحة عطر نادر تســللت إلى أنفي، عبق فُلّ مُخبأ في ســترته. فغر فاهه، شــعرتُ أنه ينوي تقبيلي، تراجعت برأسي قليلًا، قليلًا جــدًا، بهدوء، بحذر، امتــدَّت ذراعه فجأة لتقبض قفا عنقــي، انتصبت حواسي، شيء ما تحرك، رغــم الخوف سرى خدر مُقزز أنبت زغب جسدي، شــفتاه على بُعد مليمترات قليلة من شفتي،

همس بسطوة رجل ساديٍّ، قال: هذا يعني أنك لا تعترف بولايتي؟ ثم ابتعد إلى الوراء بضع خطوات. التقط سلاحًا آليًا نوع كلاشينكوف كان مخبوءًا خلف ستار أخضر، سدّد فوهته إلى صدري، نزعت من عضلات وجهي ابتسامة خوف، وبينما كانت حُنجرتي تُطلق ضحكة مُقطّعة، ممزقة، مرتعشة، مسحوبة إلى أسفل، أسند السلاح إلى كتفه، أغمض عينًا وفتح أخرى، سدّد، وضع أصبعه على الزناد، قبل أنْ أصرخ، سمعت صوت ارتطام إبرة البندقية في خطاف المضرب المعدني. لو أنه قبّلني لكان أهون عليّ من رعشة الرعب في مفاصل قدمي، شعرتُ بخواء في داخلي، أنَّ نخاع العظم بارد، وأنَّ حياتي مُعلّقة في مشنقة بين السماء والأرض، هوى قلبي إلى كاحلي، شعرتُ بالجوع والبرد، برغبة عارمة في التقيؤ. أصدرت البندقية تكة، احتكاك قطعة فولاذ بإبرة نحاس. انفجر عبدالملك الحوثي ضاحكًا بعصبية، اهتزت كرشه وارتعش بدنه. انتفخَت أوداجه وبرزَت عنقه كعنق ربّاع. شُعاع المصباح الخافت في جانب القبو السفليّ ألقى بظلال مخيفة على صورته، بدا مثل مجنون، مريض في حالة خطرة، معتل اجتماعي، سفاح متسلسل، كمجرم يتلذذ بإفزاع ضحاياه، يختارهم وفق لائحة يحدد معاييرها سلفًا، ثم يبدأ دراسة كل ضحية على حدة، يجمع بينهم في خطوط متناسقة طوليًا وعرضيًا، يرصد المتشابهات والمختلفات فيهم، ثم ينفرد بكل ضحية، يمارس رغبته في إشباع لذته بطريقته المهووسة، يلعق عرقهم المتفصد

من مسامهم. يتذوقه بلســان خبير محترف، يُحلل نوعية العرق، يفكك شــيفراته الوراثية، خارطته الجينية، يلهــو في فواصل الألم، يدوس على نقاط الضعف، ينكش وجعًا مندملًا، يُذيب صلابة ضحاياه الرماديين، يُحرقهــم على مهــل، بــبرود، يتأملهم أمامــه، ينضجون عــلى صفيح ســاخن. لم يكن رجلًا طبيعيًا هذا الذي أراه أمامــي، خارت قواي، لم تعُد ركبتاي قادرتيْن على إســناد طولي، وقعتُ عــلى الأرض، صحتُ متشنجًا: أكنتَ تريد قتلي؟ أنا شــاهين يا عبدالملك، أنا شاهين، ورددتها ثلاثًا، ثم صككتُ وجهي، جلس القرفصاء يتأمل فجيعتي، أدار رأسه بغرابة، حدّق فيّ، أخرج لســانه ولعق أرنبة أنفي. أأنا دُميته؟ - سألت نفسي، ماهذا اليوم الملعون؟ ما هذا القبو الســحيق؟ من هذا المعتوه؟، رجع إلى طرف القبو، جلس على كرســيه الهزّار مُحدقًا إلى أعلى، رُكبتاي مضمومتان إلى عجيزتي، ظهري مقوس إلى أســفل، وجهي مدفون في يدي، جسدي مُتكور على أرضية القبو. كرر سؤاله دون أنْ يشيح نظره عن الســقف: هل تبايعني وتعلن البراءة من المشركين وتتولاني كما أمر الله ورسوله، والإمام علي بتولية من أمروكم بتوليهم؟. سكت. ارتفعَت نبرة صوته حِــدة: هل تتولاني؟، فكّــرت بسرعة محــاولًا تغيير مجرى الحديث في مساق آخر، سألته: هل كنت تنوي قتلي يا عبدالملك؟ اعتدل في جلسته. غرس بذراعين مرتجفتين جســده في طاولة المكتب الخشبي، هادرًا: اســمي الســيد عبدالملك. يا ابن الـ... ثم توقف. نظرتُ نحوه

مُشــفقًا، لوّح بكفه اليمنى، نهض، تقدّم، أفرج ســاقيْه أمامي مباشرة، ضمّهما، جلس ، قبض ذراعي بمخالــب ذئب، تحوّل صوته إلى فحيح: صدّقني لولا أني ابن ناس وأحفَظُ لك صداقتنا وكل شيء فعلناه ســويًا لكان لي معك شأن آخر!. اشــتدت مخالبه إحكامًا على ذراعيّ، شعرتُ بألم، قال: انظُر كل الذيــن خالفوا أو عاندوا المســيرة القرآنية، أين هُم وأين نحن؟. عاد صوته إلى طبيعته، اســترخت عضلات وجهه، أكمل قائلًا: أنا أحبك، أعشق عينيْك، تبهرني خصلات شعرك المُذهب، أنت شــبيه الملائكة، لا أريد إيذاءك. ثم جاء صوته مترجيًا ضعيفًا واهنًا: أنا أحبك ياشاهين، أعشــقك. هل تفهم؟ تركتُه يتحدث وأنا ساكن مثل طائر بلله الخوف وأصابه الرعد وأســكنته الفجيعة على ريشــه المنتوف في قنّ دجاج. هجعت، أملت رأســه إلى كتفي، طوَقته بذراعي. جعلته يهدأ. بكيــت، وبكى، قال في غمــرة من دموع أنه لــن يتركني دون أنْ يضمن ولائي التام. مســحت بمرفقي جفن عينــي اليسرى، قلت: أنا معك كإمام مذهب، كقائد حزب، كصانع تغيير. لكنك لستَ مولاي، أنت ســيد الجماعة التي أنتمي إليها، لكنك لســتَ سيدي المسؤول عن ديني، لســتَ أفضل مني عِرقًا ولا أعلى مني نسبًا أو مكانة. قلت أيضًا: أنا وأنت عشــنا معًا طفولة حُرة وحياة جميلة في صبانــا الرائع، أكلتُ في داركم أكثر مما أكلــتُ في بيــت أبي، دافعتُ عنــك ودافعتَ عني، أســندتَني وأســندتُك، حمينا ظهر بعضنا، اقترنتُ بك رفيقًا. وها أنت

اليوم تُظهر عليّ وتُكرهني ما لا أطيق، كن كما كُنت. لا كما أرادك "محمد عبدالعظيم" و"المؤيدي". كان صامتًا، يسرح في خياله، أعادته كلماتي إلى أيام فطرته كإنسان قبل أنْ يرتدي فراء الذئب وتنمو مخالبه وأنيابه، قبل أنْ يتجرع كأس السـم في حلقات دروس عنصرية، جعلته وحشًا، قبل أنْ تبثَّ أمه همسها في خلاياه وتُرضعه وهم العِرق، قبل أنْ يغشاه موج الأحاديث المختلقة عن رسول الله. قبل أنْ يعيش ثأرًا مع نفسه ومجتمعه على دم الحسين وجثة زيد ومآتم الموتى.

لم يكن مسـتعدًا بعد ليُشـفى، هل يترك كل شيء بناه من أجل "قبيلي" له شعرٌ خلاب، هل ينزل عن مجدٍ من أجل عينيْن يعشقهما، هل يتخلى عن عـرش إمامته وقد لاح له عرش اليمن بأكملها على مسـافة أقرب مما يتصور؟. نهض على قدميْه، شـبَّك كفيـه وراء ظهره، خطى بضع خطوات، أطلق تنهيدة متحسرة، مدّ أصبعـه نحو زرٍّ خفيّ تحت طاولة المكتـب. اختلط صـوت دوي إنذار داخلي بوقع أقـدام ثقيلة، فُتح الباب بُعنف، شكّل حُراسـه طوقًا نصف دائري يفصل بيننا، رأيته من خلف الأجساد المتشابكة. شـاهدته يمسـح جفنًا ويُخفي دمعًا فر من عينيْه، بينما جسـدي يطير في الهواء إلى الأعلى بين أذرعهم، سمعتُه يصيح: لا تؤذوه. اذهبوا به إلى القلعة فقط!.

في طريقي إلى السـجن، كان علي عبدالله صالـح يُحلق بطائرته الرئاسية في سماء صعدة قادمًا من نيويورك باتجاه صنعاء، كان بحاجة إلى

تلطيف أذنيْه في ساعاته الأخيرة بصوت يُفخّمه. بضوء قناديل سيارات الدولة في انتظاره، بمنام أخـير بين جدران دار الرئاسـة، كان بحاجة إلى ممارسـة حقه الدسـتوري حتى آخر لحظة. قبل أنْ يُنتزع منه الأمر، ويدور الكرسي عنه ليجلس عبدربـه منصور هادي، ويتركه واقفًا. قبل أنْ ينتهي كرجل أول طوال ٣٣ عامًا. قال لكابتـن الطائرة أنْ يهبط إلى اقرب مسافة ممكنة فوق جبل مران، رأى من نافذة زجاجية صغيرة عُمال بناء ورافعات إسـمنتية وبناءً بدأ في التشـكل على هيئة ضريح. شاهد عربة سـجن بيضاء تجتاز طريقًا ترابيًا باتجاه الغرب. طلب من مضيف الطائـرة قنينة ماء وكأس شـاي أخضر. المُضيف الـذي انحنى نصف انحناءة بتوقـير بروتوكولي تعلّمـه في معهد الطيران والفندقة بشـارع حدّة قبل ثلاثة أعوام تراجع بضع خطوات إلى الوراء قبل أنْ يسـتدير نصف اسـتدارة آلية، متجهًا إلى الأمام نحو مقصـورة الضيافة. التقط كأسًا زجاجيًا، مسحه بمنديل جاف، ترك صنبور الماء المغلي ينسكب في جوفه حتى النصف، حرّر كيس شاي نوع "ماتشا" أخضر ودلق أوراقه الذهبية في الماء، أحضر آنية كريسـتال من خزانة علويـة مُغلقة. رتّب الطلبات بعناية. ملعقة خشبية صغيرة، ثلاثة مكعبات سُكر مُحلى، ثلاثة مناديل مُثلثة طُبع عليها شـعار طائرة اليمنية، قنينة ماء متوسـطة نوع "فيجي"، وكأس الشاي. علي عبدالله صالح الجالس على كرسي جلدي وثير، شاهد المضيف الشاب حاملًا طلبه بين ذراعيْن نحيلتيْن، وقبل أنْ

يتقوس ظهره وتمتد يداه لوضع آنية الكريســتال على طاولة خشبية براقة، ســأله: من أين أنت؟. اتسعت ابتســامة المضيف قائلًا: من بني الحارث فخامة الرئيس. اعتدل صالح في جلسته، أعاد عجيزته إلى الوراء، وبكف محترقة التقط قنينة الماء وأفرغها كاملة في جوفه، رفع رأســه إلى مُضيفه. سأله عن اسمه. تحسَّس الشاب تلقائيًا بأصبع واحدة شارة نحاسية مُثبّتة على قميصه الأبيض مكتوبٌ عليها اسمه، قال: أسامة الحارثي.

شارك "أســامة" في مظاهرات ميدان الســبعين المؤيدة للرئيس صالح. كان "عفاشيًا" حتى النخاع، مُتطرفًا في تأييده، حين شاهد رئيسه يظهر مُحترقًا على شاشة قناة اليمن الرسمية، أطلق صرخة مفجعة. كان ســخام الحريق يُغطي كل جزء من وجه الرئيس الــذي يتلقى العلاج في المملكة العربية الســعودية، ذراعه اليمنى مُغطاة بجصّ أبيض طبيّ يُستخدم لتثبيت الكســور. كتب "أســامة" بحرقة عن ذلك الظهور في صفحته بفيســبوك، بعد ساعات تلقى رســالة على الخاص من العميد طارق محمد عبــدالله صالح "ابن شــقيق الرئيس" يشــكره على كلماته وتأييده. دعاه "طارق" لحضور مقيله اليومي بمنزله في شارع بغداد.

في عصر اليوم التالي، بتمام الســاعة الثالثــة إلا خمس دقائق، كان أســامة بكامل أناقته يضع قدمــه اليمنى على أولى ســلالم منزل العميد طارق، الفناء رغم شــجيرات الليمــون والرمان القليلة والحشــائش الخضراء لم يكــن رحبًا، دلف "أســامة" المقيل الخــاص. فتحة مربعة في

الواجهة وُضِعت عـلى إحدى رفوفها صورة صغـيرة بإطار فضيّ لقائد الحرس الجمهوري أحمد علي عبدالله صالـح. صورة أخرى تجمع طارق وأحمد، في منتصف الـرفّ أربع عُلب ذهبية لسـجائر كوبية فاخرة نوع *MONTECRISTO*، في الأعلى صورة قماشية لوجه علي عبدالله صالح، صلعة طارق المنحدرة إلى قفـاه كانت مفاجئة، طاقيته العسـكرية التي يظهر بها في أغلب صوره على محرك بحث *google* أخفت تلك الصلعة الشـاملة. في منتصف المقيل، قبل دنو الساعة السليمانية تعرف طارق إلى وظيفة أسـامة "مضيف ثانوي على طيران اليمنية المدني"، أخرج سيجارًا نائمًا إلى جوار أصابـع بنية مُغرية، قضم رأس السـيجار بمقصّ صغير، أشـعل عود ثقاب. وفي أقل من ٣٠ ثانية كانت سـحابة دخان تحجب وجه طارق عن باقي أصدقاء بعدد الأصابع يشاركونه مقيله الهادئ. قال والسيجار يتراقص في أصابعه: "لا يُشـعَل هذا التبع الملفوف على أفخاذ الكوبيات الجميـلات إلا بعود ثقاب". جال بنظـرة خاطفة على وجوه أصحابه المنتفخـة بعصف القات المأكول، مضغ طرف السـيجار بفمه، استنشـق رائحته، قال: الثقاب يعطيك نكهة لا تجدها في قدّاحة الغاز. أخرج سيجارًا آخر، قضم رأسـه، قرّبه إلى "أسـامة" المتكئ إلى يساره، حثّه على التقاطه بعبارة واحدة "جرّب"، أشعل "أسامة" السيجار، شفط بعمق، انفجر حلقه بسـعال متصل، ارتبك. طارق أخرج سحابة دخان أخرى، مُعلقًا: الرجل الذي لم يذُق نكهة التبـغ الكوبي لا يعرف معنى

الفخامة. حين اســتدار أســامة مغادرًا المقيل قبل منتصف الليل، جاءه صوت طارق "انتظر"، أخرج ورقة من درج طاولة خشبية سوداء.كتب بقلم كان معلقًــا في جيب ثوبه الأبيض بعض العبــارات، طوى الورقة وســلمّها إليه، قال: خُذها غدًا إلى مكتب "عبدالخالــق القاضي". أومأ "اسامة" رأســه بحماس، لم يفتحها. أدخَلها جيب ســترته ومضى. بينما ينتظر وصول ســيارة أجرة، أسند "أســامة" كتفه إلى عمود إنارة طويل، أخرج الورقــة، فتحها، قــرأ "الأخ الكابتن عبدالخالــق القاضي رئيس مجلس إدارة طيران اليمنية المحترم. يحمل إليكم هذا الخطاب الأخ أسامة الحارثي، وهو مضيف ثانوي في طيران اليمنية، ولا نرى مانعًا من تعيينه مضيفًا في الطائرة الرئاسية. وعلى مسؤوليتنا".

ابتهج أســامة لتلــك التوصية المميــزة، طار فرحًــا، قرأها مرة أخرى، وأخرى، تحدث بها إلى أصدقائه المقربــين، حدّثهم عن صديقه "طارق"، عن الســيجار، عن ضحكته الغريبة، كان يتباهى كونه رجلًا مُهمًا، ومُضيفًا في حضرة الرئيس.

حين وطأت قدَما أســامة الحارثي مطار صنعــاء فجر يوم ٢٢ فبرايــر ٢٠١٢. لم يرجــع إلى الطائرة الرئاســية، لم يعد لــدى الرئيس "السابق" طائرة، ولم يسافر علي عبدالله صالح خارج اليمن مرة أخرى.

- ٦ -

أتذكر جيدًا ظهيرة اليوم الذي دخلَــت فيه مدينة ذمار -جنوب العاصمة صنعاء- لاستلام مهمتي كـ "مشرف"، وظيفة تجعلني الرجل الأول، شكل من أشكال القبضة الحديدية للجان الثورية الجديدة التي أعلن عنها في بيان ٦فبراير ٢٠١٥م، وصلتُ منزل "أبو تراب"، اســمه الحقيقي: عبدالله الوشــلي، كان عضــوًا بمؤتمر الحــوار الوطني الذي انتهى بإعلان مخرجات ومبادئ أساسية رفض الحوثيون التوقيع عليها، اســتقبلني عند عتبة منزله المرصــوف بالحجارة الســوداء، بيت طويل كمئذنة مُكعبة الشكل جُمعت على طوابقها ألوان من الحجارة الكبريتية والصمّاء وحجارة الحبش. ترجَّل المرافقون الشــخصيون وشكّلوا طوقًا نصف دائري حولي، توقف بعض الصبية عــن اللعب.حدّقوا في تلك الجلبة، عجوز بدينة تمشي الهوينا في المسار الضيق المؤدي إلى المنزل تتبرم من الزحام الذي ســبَّبه وجودي، فيما يبدو أبو تراب فخورًا بي، يتعزز نفوذه كلما ارتبط برجل من صعدة ممن يحظون بثقة السيد.

عيناه خضراوان وشــعره أشــقر، لحيته الذهبية تذهب به بعيدًا عن ســحنة اليمنيين القمحية، لكنه على أية حال هاشمي، هو أقرب إلى

السيد نسبًا، أما أنا فمن الذين لا يجمعهم شيء بأنصار الله سوى ماضٍ أَلّف غربتي مع ابن بدر الدين في قرية واحدة، وحيّ واحد، وفناء واحد، وغرفة واحدة.

دلفت المنزل، يسارًا، إلى غرفة الضيوف، سجاجيد حمراء، متكآت بنية اللون، مساند قرمزية، وستائر زرقاء داكنة، تناقضٌ صارخ أشعَرني بانقباضة شؤم، بكاء طفل، وهدير أصوات متعالية في الترحيب، سلام ومصافحات، أشخاص لاأعرفهم، بدأ أبو تراب في التعريف، هذا حسين عقبات، علي الوشلي، محمد السوسوة، يحيى الكبسي، حمود مطهر، قُبلات كثيرة، شعرتُ ببصاقهم لزجًا على خدي، بحرارة أجسادهم، وتملُّقهم. بعد دقائق دخل ضابط في زيّ شرطة النجدة الأزرق الداكن وعلى كتفية رتبة عقيد، رجل طويل، رائحته عفنة مثل خنزير خرج لتوِّه من حظيرة الروث، شاربه دقيق وعيناه غائرتان، لم أتذكر اسمه جيدًا، لكنه عرّف عن عمله قائلًا: أنه قائد قوات النجدة هنا. سألتُه عن المحافظ السابق الذي أعلن استقالته وأبرقها إلى الرئيس المحاصر عبدربه منصور هادي، أجاب مندهشًا: هل تعرفه؟ أومأتُ برأسي، وانتظرتُ. لم يتفوه بكلمة، سألتُه عن استعددات قوات النجدة في دعم وتأييد "المسيرة القرآنية"، لم أتذكر أيضًا أنه أجاب عن شيء مفيد، كان ثرثارًا، أمثاله لا يستطيعون كسب احترامي، وإنْ زاد تذلُّله.

حضر الغداء؛ صنوف مشــوية ومســلوقة من اللحم الطازج، صوان من الأرز، أكباد خراف مطبوخة بطريقــة فريدة مُطعَّمة بحبات الذرة وعليها رشَّــة شــطة، آنية حجرية متوزعة على طــول المائدة من الفحســة الملتهبة نارًا وفلفل حار، الكثير من أطعمة يمنية، الشــفوت، بنت الصحن، العصيد تتوســط المأدبــة مثل: قباب مجوفة إلى أســفل وعليها مرق لذيذ داكن وقليل من الطماطم المسحوق. الجميع يراقبني، ينافقونني، يتذللون، يترضَّون على "حسين الحوثي" بطريقة مقززة، وقد كانوا أول مَن أرسل القوافل الغذائية والرجال لمهاجمته في الكهف حتى قتلوه، لا بأس!، أنا اليوم رســول الســيد عبدالملك، حبيب طفولتي، وموضع ثقته واختياره، أنا السلطة الجديدة، الرجل الأعلى من منصب المحافظ، كل شيء في قبضتي، ولم أتجاوز الثلاثين بعد.

قضيتُ أيامًا في مبنى سكني الجديد، استراحة ضخمة مثل قصر، أربعة طوابق من حجر "توالب" شــيّدها المحافظ الأسبق بجوار سكنه في عمق المدينة القديمة، ساحة مرصوفة بالحجارة الملونة، وعلى يسارها موقف ســيارات بمظلات رملية اللــون، في البهو ثــلاث غرف على الجانبيْن الأيسر والأيمن، وسُلم طويل في المنتصف من الرخام الأبيض، يصل إلى الدور الأول ويرتبــط بصالة اجتماعات، وديوان طويل لتناول القات، في منتصفه جلســت كإلهٍ، كانت القرابين تتــوالى، أقلام ذهبية، جنابي مصنوعة مــن قرن وحيد القرن يســوقها الباعة الحاذقين بنصف

أســعارها ويتقدم تجار المدينة لشرائها، يضربــون صدورهم ويحلفون بالطلاق ألا أدفع بنسًــا واحدًا من جيبي، آه! تذكــرتُ جيبي، مايزال متخمًا بالعملات الصعبة، ســعودي، دولار، يروق لي أنْ أنزع عن كل ربطة وثاقهــا المطاطي وأتركها محررة مســتقيمة، ظاهــرة ومتدلية من الجيب، ذلك يُشعرني بالدفء.

بدأ اليوم الاجتــماعُ الأول لقيادات المحافظــة، وصل المحافظ حمود عباد طويلًا أكثر مــن اللازم بصوت أجش، وحنجــرة تبدو أنها ابتلعت بالأمــس قواريرَ من الخمر البلدي ذي الرائحــة النفاذة، عينان محمرتان، وابتســامة ماكرة، ورأس ضخم، بدأ مُسبحًا بحمدالله وثنائه، تحدث بلغة فصيحة وصوت جهوري عن أســباب اللقاء، مُحييًا المشرف الجديد الذي وصفه بـ"صديق الطفولة للســيد العلم"، كان يبرز وصفه ضاغطًا على أســنانه، ممعنًا النظر إليّ، كأنه يفتش صدري عن شيء نسيه ولم يجرِ على لســانه بالنميمة، توقفتُ عن رؤية الجالسين، لم أعد أشاهد أحدًا سواه. صوته، تلويحات كفيْه، ثنايا أصابعه، رأسه يدور بينما عيناه مصوبتان نحوي مثل عدســة قناص، فجأة حُــشِرت وريقات القات المأكول في فمي وسدّت فتحة التنفس، سعلتُ بشدة، حاولتُ الشهيق، لم أســتطع، هذا الماكر الملعون يكاد يقتلني، شعرتُ بإغماء، أتذكر طرْق الأيدي بلطف وعنف على ظهري، صدري، همهمات تحفزني على شرب ماء مُحلى، يبيسي، أيّ شيء يمكنه إنقاذي، هرعتُ إلى دورة مياه أســفل

الدرج، وتقيَّأتُ كلَّ شيء، سقطتُ على أرضية الحمّام، ألهث من الإعياء، ألوِّح بكفي لمن تبعني أنْ يرحل ويتركني لأستردَّ بعضًا من عافيتي. قلتُ بصوت مختنق ضعيف: أنا بخير، بخير.

عُدتُ بعد دقائق إلى الديوان الطويل، الجميع يتلطفون بي، وقد طفت الحُمرة وجهي، المحافظ لم يبرح مكانه، كأنه انتظر موتي، هذا الوغد العجوز لا يبدو أني أروق له، فأنا "قريب" أكثر من اللازم إلى السيد كما أشار ذات سياق بيننا، تبسمتُ محاولًا إخفاء آثار عبارته، لأردّ الضربة بأشد منها: وأنت لصٌّ أكثر من اللازم، قهقه متصنعًا الودَّ، احتضنني بذراعه حتى لم أعُد ظاهرًا بين ثنايا جسده الضخم، قائلًا: أنت كرجال بدر، وأردف مفسرًا: لا يضرُّهم ما صنعوا بعد يومهم ذاك.

تلك الليلة، طلبتُ من الحراس نقل صورة كبيرة لحسين بدرالدين الحوثي إلى غرفتي، وضعوها على الجانب الأيمن من السرير المزخرف بحوافّ ذهبية، خلعتُ ملابسي ووقفتُ عاريًا في مواجهته، في جوف الليل، في نور المصباح في هجعة القصر كانت ظلال جسدي تتجسد كعملاق مُطلٍّ على صورته، كمظلة لها حوافّ جسد، تُلقي بامتدادها على النافذة الكبيرة المطلة على الجانب الخلفي من القصر، شبح ظِلي يصل إلى القمرية الملونة بقطع الزجاج، شيء ما دعاني إلى الاقتراب أكثر من الصورة، سألته بهمس: هل تراني؟ لم يُجِب، كلما اقتربتُ منه تقزَّم الظل، أعود إلى الخلف خطوتيْن، فيكبر الظل،

تبسّـــمتُ، نحن وحيدان أيها الســـيد، يا قرين القرآن، ياوريث النبوة. راق لي أنْ أجمع نخـــام حنجرتي وأقذفـــه على وجهـــه، تبللَت الصورة وســـال بعض منه كدمع من عينيه، وقفتُ أتأمله، حدّقت في بؤبؤ عينه اليمنى، ما الذي يشـــاهده الآن؟ أين هو؟ في الجحيـــم بجوار جدّه أبي لهب؟، ومســـحتُ جريان البصاق عـــلى وجهه، تذوقتُـــه، ثم بصقتُ مرة أخرى بكراهية أشـــد، فتحـــتُ دولابي، أخرجـــت قنينة خمر فاخر نوع فودكا روســـية، لا لونَ لها مثل الماء غطاؤها أزرق رفيع، قلّبتُها في كفي، وابتســـمتُ مرحًا، جلســـتُ على حافة السرير أداعب خصيتي، أفكر فيما ســـيحدث غدًا، وكلما فكرتُ أكثر جرعت كأسًا من الفودكا، نهضتُ متثاقلًا، أفرغتُ ما في مثانتي على الصورة، يمينًا ويســـارًا، طولًا وعرضًا، تبلل الســـيد، أعدتُ رأسي إلى الخلف، قطبتُ حاجبَيّ، أفكر مرة أخرى، هل هذه جريمة؟ التبول على صورة رجل ميت ومقدَّس!، ثم نفضتُ عن رأسي أســـئلتها. تردّدت أصداء خطى في الممر. برز ظلُّ رجل أسفل باب الغرفة. جلســـتُ القرفضاء أحدق في الرجل الساكن أمامي، أصفعه، هيا قل لي ما الذي ســـتفعله؟ لقد قتلتَ شـــعبًا بأكمله لتحقيق وهْمِ تفوُّقك العِرقي؟، ماهذه التفاهة يا شـــاهين، هل تتحدث إلى صورة وتنتقم من ميت؟ صوت طرقات خفيفـــة على باب غرفتي، تكرر الطرق، جرعت مـــا تبقى في قنينة الويســـكي، كان الكأس ثقيلًا في أصابعي، انســـحبتُ إلى السرير مثل كلب، الطرقـــات تدنو وتغيب،

وجهٌ ما يحدِّثني، هل أحلم؟ عبدالملك الحوثي صبيًا في شــعاب القرية، هناك حيث كانت شــجرة كافور كبيرة ووحيدة متأملًا كفيْه، سألته: لِمَ لا تظهر شقوق على كفيْك مثل كفي؟، تبسَّــم الصبي قائلًا: عليك أنْ تنظفهما بليفة خشنة ثم تضع قليلًا من الشحم أو سمن المطبخ واتركهما حتى يجفّــا ولا تلعــب في التراب فليتصق بهما ويتشــقق جلــدك أكثر ويُدمى، كانت هذه أول معلومة طبية أســمعها، سألتُه مرة أخرى: هل تأكل التراب؟ حــدَّق بعينيْه وضحك في دلال، ثــم صفعني بقوة وفرَّ هاربًا، جمدتني المفاجأة، وعلى بُعد أمتار توقف، مشــيرًا بكفيْه صائحًا: الحقني إن اســتطعتَ! ثم هرب كغزال، ولحقتُه كســلحفاة. دار حول القاع الصغير، يتفزز بالحيوية في حقول القات والعشــب ويختفي وسط ســيقان الذرة الكثة، ثم يظهر مــن الجانب الآخر، كنــتُ ألهث وراءه وأنفاسي تعلو وتهبط، يعــود، يقترب، يدور حول الشــجرة، صائحًا: هيا يا قبيلي، نَلْ مني!، وتباطأ أو أنه تعمَّد أنْ يتباطأ، أمســكتُ به، دُرنا حول بعضنا، قبض عــلى معصمي الأيمن ثم الأيــسر، ثبَّتهما إلى جذع الشجرة، وفجأة دنا مني وقبّلني! شــفته باردة كقعطة آيسكريم، طرية ومشدودة إلى أســفل، أغمض جفنيْه، تســمّرت أعضائي، تصلب كلُّ شيء فيّ، قاومتُ تكبيله وبصقتُ في الهواء، مسحتُ شفتي بباطن كفّي، فتراجع محتدًا بضع خطــوات إلى الوراء، كاد يتعثر، أمســكتُ معصمه سريعًا فأنســاب جســده إلى صدري، كأنه تآوه، لم أتذكر جيدًا إلا أني

دفعتُه بعيدًا وصحتُ بحنق واضح: ما الذي تفعله يا وسخ؟ لم يُجِر جوابًا، صمت. دفعتُه أمامي مرة أخرى، "هيا قبل أنْ يلحظ أحدٌ غيابنا". استسلم بخطوات متثاقلة وطفقنا عائدين، لم نتحدث عن شيء، أطرق كلانا إلى الأرض، كان يجرُّ قدمه وراءه، حذاؤه الأبيض نوع أديداس ذو الأصابع السوداء الصغيرة، أما أنا فحافي القدمين، أشعر بعذوبة الأرض حين أخلع حذائي وأعدو، بلمسة الطين على باطن قدمي، برؤية الدم في رجلي ينبجس من مسمار صدئ كان مزروعًا في قلب الحقل، بذلك الألم الذي كان يثير عجب طبيب القرية ذي الوجه البريء، حين أبكي، وأسير أعرجَ بين أقراني، ثم أعود إليه لينزع قطعة زجاج استقرت في هذه القدم البلاتينية، هكذا وصفها ساخرًا. وجهه نحيل، شارب نميم وأنف مدبب وعلى جانبي رأسه صلع منحسر، وفي ثنايا فمه يبرز صفان ناصعان من الأسنان، كان يعبث بشعر رأسي المنسدل إلى أسفل العنق، يُعلق ضاحكًا: أعطني قليلًا من شعرك وسأعالجك مجانًا مدى الحياة، فيتدخل عمّي معترضًا: قل ما شاء الله يا دكتور!، يلوّح بكفيه ويقهقه، ثم يمضي.

توقف "عبدالملك" في منتصف الطريق، طلب أنْ أسامحه. سَكتُّ. رجاني أنْ لا أخبر أحدًا، لم أُجِب، تضرَّع، غمغمتُ متمتمًا بكلمات غير مفهومة، لم يتركني حتى وعدتُه بالصمت، وافترقنا عند مجرى السيل الصغير الذي يسري بين حقلينا في هدوء..

لم أنم تلك الليلة.

- ٧ -

لم يـدْر بخلد "محمـد عبدالعظيم الحوثـي" أنَّ انتظـاره الطويل، الطويل جِدًا لإمامة الزيدية سيصبح أسـوأ كوابيسه على الإطلاق، حين بدأ القراءة والكتابة كان مُعلّمه "مجدالدين المؤيدي"عجوزًا، وحين تزوج كان "المؤيدي" كما هو، ولمّا بلغ سـنَّ الأربعين كان الرجل العجوز يمضي في العمر ولا يأبه، ولما انفرد "محمـد عبدالعظيم" بطلاب ومريدين وحقق شـأنه في الفتوى، كان المؤيدي أمامـه صامدًا في وجه السـنوات، وعند بلوغه الخمسـين في منتصف ٢٠٠٤ برز رأس حسـين الحوثي منافسًـا وناويًا ابتلاع فقهاء الزيديـة الكبار، إنزالهم من برجهـم العاجي، زلزلة عروشـهم وارغامهم على توليته إمامًا مُعلنًا. قرون الاستشـعار في عمامة "محمد عبدالعظيم" أنذرته بقرب خطر محيق، وأنَّ صبره على سنوات "مجد الدين" ستتبدد أمامه، وهو يرى ويسمع. وأنَّ أولئك الذين يحنون قامتهم ليتبركوا بركبتيْه ويقبّلونها، يلثمونها بسعادة، يغرسون شفاههم في سوادها ويحتكون بشعيراتها المتقصفة، سيتركونه ليمارسوا ولعهم الغافل على ركبة "حسين بدرالدين الحوثي"، أحد طلابه قال رأيًا غاضبًا، رفع ذراعه، وكرر جُملة ارتعدَت لها فرائصه، قال "نقاتلهم ياسـيدي"، كان يعرف "حسـين"

عنيفًا وعنيدًا، رمى تلميذة بقنينة ماء. صاح في وجهه: "اسـكُت، قاتلك الله!". أحس ارتعاشة في خاطره حين سمع شـيئًا عن القتال. ضرب كفًا بكف، حدّث نفسـه عن حظه العاثر "أبعد كل هذا الانتظار يتبدد الحُلم في إمامتي؟"، هزّ رأسه بأسى، تحول إلى غضب، أطلق على سجادة الجامع نخامة مقززة، شـتم المؤيدي، شـتم حسـين وشـتم أباه، كان هائجًا في خطواته، يكلم نفسه حنقًا، بغيظ دفين وحقد يكاد يقتله. في تلك اللحظة رنّ جـرس هاتفه، انتفض بفـزع أرغم ثلاثة من المصلـين على الضحك وإفسـاد صلاتهم. رمقهم بعينيْن كالجمر "ما الـذي يُضحككم ياكلاب إبليس؟"، ابتعد الشُـبّان الثلاثة مُسرعين يكتمون ضحكاتهم، يتعاتبون، كل امرئ منهم يصفـع قفا صاحبه ويلومه. في الفنـاء، على بُعد خطوات من بوابة الجامع الخارجية كان يتحدث إلى "اللواء عليّ محسن الأحمر". عَلِم أنَّ الجيش قرر التحرك لردع "حسين بدرالدين". انفرجت أساريره، هلّل وكبّر، بارك وأثنى. تلك فرصته الثمينة لإزاحة منافسـه "عاشق الدماء". بعد أنْ أغلق مكالمته مع قائد المنطقة العسـكرية الشمالية، وبينما كان يدسّ هاتفه في جيب جلبابه، تذكر شـيئًا أغمّه، كدّر صفو الحديث الذي أبهج روحه وأحيا أمله في الظفر بإمامة الزيدية، تذكّر أنَّ القفص الصدري لمجد الدين المؤيدي مايزال يعلـو ويهبط، أنَّ أصابعه تتحـرك وتومئ وتكتب وتُشـير، أنَّ لسـانه يجري بالفتوى والحديث "هذا العجوز لن يهنأ بالموت حتى يُطيح بي ويدفنني حيًا".

في ١٠ سبتمبر ٢٠٠٤، التقط هاتفه صورًا لجثة حسين بدرالدين الحوثي انتــشرت بكثافة في مواقع الإنترنت، أســدل نظارته الطبية على منخاره المفلطح، وضع أصبعيْن على الشاشــة، قــرّب الصورة، تحقق، "إنه هو حقًا"، اســتراحت عضلات صدره من انقباض ســعال شديد ألزمه داره، تدثَّر ببطانية ثقيلة "أبو تفاحة"، غاص تحتها، عقله منشــغلٌ بتفاصيل مابعد المعركة، وســوء حظّــه المتكرر بعــارض صحيّ منعه اعتلاء منبره يحرّض على "الفاســق الصريع" وأتباعه، رتّل بعض آيات القرآن المحفوظة في دماغه "تبارك الذي بيده الملــك.."، "يس والقرآن الحكيم..."، "يا أيها المدّثر.. " لم يُكمل ســورة المُدثر. عقله توهج فجأة بنظرية عقــدت ترابطًا - ظنّه إلهيًا - بــين تدثُّره في فراشــه ونبأ مقتل حسين الحوثي، أقنع نفسه أنها أمارات النبوة، ولأنَّ النبوة انتهت برحيل جدّه المصطفى صلوات الله عليه، فإنها ولاريب أمــارات الإمامة التي نُزعت عن جدّه علي بن أبي طالــب، فعادت إليه، ثــم نُزعت عن ابنه الحسين فسقاها بدمه الطاهر لتروي حياة المســلمين بالنضال والجهاد، فكانت بحقٍّ ثورة انتصار الدم على الســيف. صفّق "محمد عبدالعظيم" بكفيه مثل طفل، تمنى لو أنه تعلّم كيف يســتخدم أصابعه ليُصفّر، كان سيفعلها من تحت الفراش، في ظل غيمة ســوداء، وعرَق متفصد يدهم جبينه ويُغرق سروالــه. يحس بقطراته تسري من أعــلى عموده الفقري حتى أســفل عجيزته، ثم عاد وتذكر أنَّ "مجدالديــن المؤيدي" لم يمُت

بعد، فأوجعتْه بطنه، شعر برغبة في إخراج شيء، أنصت بحواسه يراقب ريحًا تضطرم حبيســة في أمعائه، مرت الآن من الأمعاء الدقيقة، نزلت، اقتربت، تنحنح، ثم.. طائرة نفاثة فتحت مجالها الصوتي في سماء غرفته، رائحة نتنة قاسية. سأل نفسه "هل أكل خنزيرًا في الغداء؟"

في صبيحة اليوم الثالث، شــعر "محمــد عبدالعظيم" بتحسُّــن لافت، اختفت الحُمى وزال خطر منافســه، وبدأت خطوة الســفر إلى صنعاء للقاء الرئيــس علي عبدالله صالــح، أجرى اتصــالًا بـ "طارق الشامي" مسؤول الإعلام في حزب المؤتمر الشــعبي. عند الساعة الثانية عشر وخمس دقائق ظهرًا، وصلته رســالة نصية تؤكــد موافقة الرئيس على لقائه، نظر إلى ســاعته، مايــزال الوقت مُبكرًا. بعد أربع ســاعات ونصــف كان ثمانية رجال بداخل ســيارة صالون لاندكــروزر موديل ٢٠٠١ يعبرون نقطة الأزرقين إلى صنعاء، ســائق الســيارة ومســلحٌ أشــعث في العقد الثالث مــن العمــر في المقعدَيْن الأماميــيْن، "محمد عبدالعظيم" منفردًا بالمقاعد الوســطى، في الوراء حُشر خمسة مسلحين ببنادقهم وقنابلهم اليدويــة في صفين متقابلين مــن الكراسي الجلدية، اخترقت السيارة شــوارع العاصمة عند الأذان الأول لصلاة المغرب. إحدى عشرة مرة اضطر "محمد عبدالعظيم" حماية عمامته من الســقوط عن رأســه في المنزلقات الخطرة والوقــوف المفاجئ وتجــاوز المطبات الإســفلتية والترابية، يضغطها بكفه اليسرى وينتفض جســده إلى أعلى

صائحًا "ياســاتر"، حين دهمه إعياء وإرهاق كانت السيارة تدور حول مبنى حجري مؤلف من طابقيْن، إلى جوار جامع بدر في منطقة الصافية بقلب العاصمة، اســتقبله "المرتضى المحطوري" وصعدا معًا إلى مضافة المركز العلمي الشرعي للجامع، تناول عشاءً خفيفًا، من بيض مسلوق، جبن أبيض، زيتون، عسل أسود. المرافقون المسلحون تبعثروا في صالة المركز، سيِّدُهم قضى ليلته وســط غرفة معتمة في الجانب العلوي كَثرت بها الستائر السوداء، سرير واحد ودورة مياه.

في ذلك المســاء المضنِي، تمدَّد "محمد عبدالعظيم" مغمورًا بالمياه الساخنة ورغوة الصابون الكثيفة، فرك جسده بليفة ناعمة، نكث لحيته الكثة بأصابعه. أسند رأسه إلى الوراء، أغمض عينيْه. غاب طويلًا. في تمام الســابعة وعشر دقائق صباحًا أيقظته طرقات خفيفة، تلفَّت حوله مندهشًا ومستنكرًا، لم يزل في مغطسه منذ الأمس، اغتسل على عجل، جفّف جسده، ارتدى ثيابه وقفطانه، تأكد من اســتواء "القاوق" على رأسه، في أعقاب صلاة العشاء كان جالسًا على المقعد الأمامي لسيارة جديدة خارجة من البوابة الرئيسية لدار الرئاسة، حاملًا رواية عجيبة غريبة مع الرئيس صالح، نقلها مســاء ذلك اليــوم إلى صديقه رئيس مركز بدر العلمي.

المرتضى المحطــوري، قصير القامــة مثل بدر الديــن الحوثي، أصيب في منتصف عمره بجلطة ســحبت الجانب الأيمن من فمه إلى

الأســفل، يرتدي ككل فقهــاء الزيدية ملابسَ حصرية بالهاشــميين، تُزينها جنبية مزخرفــة بلون الذهب، مســتلقية إلى الناحية اليمنى من الخصر على حزام عريض مُوشــى بخيوط ملونة. اقتطع في ربيع العام ١٩٩٩ جزءًا من أرض خصصتها الســلطة المحلية منذ ٥٠ ســنة لبناء حديقة ٢٦ ســبتمبر، في عاميْن كانت أرض المحطوري مشغولة بمبنى سكنيّ ومركز شرعيّ وجامع كبير. تعرَّض المجمع للإغلاق في الشهر الأول لاندلاع الحرب مع حسين الحوثي. أُلقي المحطوري في السجن، بعد ٣٠ يومًا انتشلته يد الوســاطة من محبسه، وبقي مركزه قيد المراقبة والتدقيق من عناصر المخابرات.

جمع المرتضى المحطوري ثلاثة ألف ومائة وخمسين عنوانًا لأغلب كُتــب الزيدية، ومراجعهــا وكل ما يتعلق بالــصرف والنحو، وضعَها بعناية في الدور الأرضي لمركزه وأغلق عليهــا بابًا كبيرًا من الألومنيوم، وخشب الديكور الأبيض يُطل على مدخل فناء الجامع الملحق من الجهة الشرقية. المكتبة مكانه الأثير يقضي بها أغلب ســاعات المساء كل يوم، هناك بالقرب من طاولة خشــبية بيضاء، وعلى كُرسييْن متقابلين روى "محمد عبدالعظيم" لمضيفه "المحطوري" ما دار في دار الرئاسة بالتفصيل.

حين انتهــى مــن روايته، أضــاف المحطــوري عليهــا أنه -شخصيًا- لا يغضب من النصيحة، وقول "محمد عبدالعظيم" لعلي عبدالله صالح بترك الســلطة لمن هم أولى مــن آل البيت يمثل عُمق

الزيدية، فتجارب الجمهورية سـببّت صراعًا على السلطة، وذبحت رؤساء ونفت آخرين، وســبب ذلك أنَّ كرسي الحكم مغتصب ممن ليســوا أهلًا له، فهذا عبدالله الســلال كان قد ادَّعى الربوبية، غادر وجــاء الإرياني ونُفــي، ثم الحمــدي قتلتموه -هكذا قــال-، وأما الغشمي فمزقه انفجار ما تزال دوافعه غامضة.

أضاف "محمــد عبدالعظيــم" على دعــم صاحبه، إشــارة قوله للرئيس "لقد ظلمتَ أنت وأخوك اليمنيين أربعين ســنة، وأما قولك في الانتخابات فهي مسألة خلافية، وأما الإمامة فهي في شخص واحد مثل النبوة ولا تكون حصريًا إلا لـ "السادة" من آل البيت. هز رأسه، التفت إلى شــاب وقف على بُعد خطوات بعدســة كاميرا فيديو يوثّق حديثه، تذكر التفاصيــل الأخرى، قائــلًا: جاء أشــخاص لا أعرفهم قال لهم الرئيس "هذا عالم استفيدوا منه واسألوه"، تردد بعضهم، فقال الرئيس: "ماقولك في حديث أنه لا تصح الجمعــة إلا بإمام عادل"، فأجابته: هذا ليس بحديث. ثم أنشــد حديث النبي "وأدر الحق معه أينما دار"، وتمتم بالصلاة عليه وعلى آله، قال "محمد عبدالعظيم" ثم جاءني شــخص عن يساري، فقال: حين حضر الموت عليَّ بن أبي طالب، قالوا مَن تستخلف فينا؟، فرد عليهم "أنا لا أســتخلف فيكم أحدًا، فإنْ أراد الله بكم خيرًا يجمعكم عــلى خيركم كما جمــع الله هذه الأمــة على أبي بكــر بعد وفاة نبيِّه". وأردف الســائل تأكيده أنَّ ذلك مذكور في "نهج البلاغة". "محمد

عبدالعظيم" رد بقسـوة "كذبت وربِّ محمد! فما هـذا في نهج البلاغة"، كرر السـائل تنبيهًا عن جواب علي بن أبي طالب إلى معاوية حين كتب له "وقد بايعني مَن بايعوا أبا بكر وعمر"، وهذا تأكيد على إقراره لخلافة الشـيخيْن، سـخر محمد عبدالعظيم وقال: هذا جواب مجتزئ، ينبغي الإمعان في رسالته السابقة، فحين تلقى رسالة من معاوية أنه "ليس لك حجة عليّ كما حُجتك على طلحـة والزبير إذ بايعاك على الخلافة"، فجاء جواب "الإمام علي" إليه موضحًا معنى بيعة طلحـة والزبير باعتبارها توجب طاعة معاوية له. "محمـد عبدالعظيم" أضاف: وأمّا حديث عدم قيام صلاة الجمعة إلا بإمام عادل، فلم يُـروَ عن أحد، ولا يجوز الحمل على المجاز إذا تعذَّر الحديث، وهنا يُنفى الاستدلال.

"علي عبدالله صالح" في منتصف مقيل ضخم يسند جانبه الأيسر إلى مُتكَأ من القطن المضغـوط، يضحك حتى يتطايـر رذاذ القات من فمه، يومئ لرجل من الحاضرين فيسأل "محمد عبدالعظيم" حتى يُخرجه عن طوره، ويلمز لآخر فيحاصروه بالأسـئلة المُنكـرة لطبيعة معتقده، ظنّوا جميعًا أنَّ هذه اللحظات المتوترة والتفسـيرات العنصرية لحصرية السلطة في "البطنين" خرافة لا تستحق سـوى الضحك. لم تكن مدافع أرتال الجيش قـد بردت من حـرارة القذائف التي نقشـت أثرها على صخور "مران"، ولم تكن دمـاء الجنود قد جفّت بعـد. عائلاتهم التي أرسلتهم إلى القتال لمواجهة رصاص المؤمنين بمثل تلك النظرية المقدسة

ما تزال مآقيهم تســكب دمعًا غزيرًا على فقدهم في معركة كانت إحدى "مُســلّيات" القائد الأعلى للقوات المســلحة، وكان هو -ولا ســواه- الهدف البعيد والثابت لحربٍ لم تنتهِ بمقتل مؤسسها الأول.

بعد سبعة أعوام، باتت كل صعدة تحت جزمة عبدالملك الحوثي. خسر "عُثمان مجلي" الحرب بإعلان قوات الجيش استسلامها و"انضمامها" لقوى "الثورة" المطالبة باسقاط النظام ورحيل الرئيس. في تلك اللحظة لم يتذكر "عــلي عبدالله صالح" ذلــك الجدل الخطر والأفكار المُســلحة بالنصوص المقدســة وما ترتب عليها من تطرف يسلب ألباب المتأثرين بها ويدفعهم لمواجهــة الدولة، تارة بالطرق الســلمية ونصب الخيام في صنعاء، وأخرى بتطويق مســاحة جغرافية في أقصى الشمال اليمني بمَن عليها من السكان وتســليح صغار الســن ببنادق أطول منهم، مُحمّلين بأوامر صارمة لقتل كل من يتردد عن رفع "الصرخة" تحت سماء صعدة، وعلى مساحة ١١,٢٧٤ كم مربعًا.

في الجزء الآخــر من الكوكــب، بعيدًا عن المســلمين والمؤمنين والزيدية والشافعية، ارتدت "رقية نادر" فستانًا مطرزًا بحبات كريستال صناعي، مشقوقًا من جانب الساق الأيمن إلى منتصف الفخذ، مفتوحًا من الوراء حتــى الفقرة الثالثــة لعمودها الفقري، مشــدودًا إلى العنق بســوار لؤلؤ أنيق. ألقت "رقية" نظــرة أخيرة على هندامهــا في مرآتها الضخمة المثبتة على عجلتيْن صغيرتيْن بجوار دولابها الوردي، انتعلت

كعبًا أبيض أنيقًا يناسب قدميْها الرفيعتيْن، دسّت تحت إبطها حقيبة جلدية صغيرة وضعت بداخلها علبة مكياج مصغرة وقلم شفاه أحمر، ومرآة مستديرة بغطاء ذهبي وأربعة أغلفة لِواقٍ ذكريّ. حين هبطت إلى بهو فندق "ذا مايفلاور" بجادة كينتكت أفينيو، سمعت تصفيقًا هادئًا من الخلف، علت وجهها ابتسامة رطبة ومدّت يدها اليمنى إلى زوجها "نجيب الشامي"، سألته: كيف تراني؟ مال برأسه نحوها مُتفاخرًا. همس: ستبهرين السيناتور. ضحكت بدلال وصوت خلخال كاحلها الأيمن يبدو واضحًا في مشيتها، مُستنفرًا حواس المارة.

استقلا معًا سيارة (بي إم دبليو) سوداء كانت تنتظرهما عند بوابة الفندق، بعد أربعة شوارع، ترجَّل "نجيب الشامي"متجهًا نحو حانة يرتادها أغلب أيام الإسبوع، جلس على كرسي مرتفع أمام الساقي وطلب لنفسه كأسًا من البراندي مع الليمون، جرع الكأس دفعة واحدة. أحس بوهج ملتهب يتصاعد من أمعائه ثم يختفي، طلب كأسًا أخرى، أفرغها في جوفه، وذهب باتجاه ساحة الرقص، حرّك جذعه إلى الأسفل، مال يمينًا ويسارًا، هتف مع الهتافات، ضاع صوته في صخب عارم، أجساد متدافعة، أذرع صلبة بوشوم مختلفة، أجساد طرية، التقى بفتاة صهباء اسمها "مارغريت"، قالت بصوت مرتفع بالقرب من أذنه اليسرى "يمكنك أنْ تناديني ماغي" تذكّر زوجته، سأل نفسه "ماذا تفعل الآن؟"؟

كانت "رقية نادر" جالســة على أريكة ســوداء لامعة في صالة فاخرة الأثــاث بداخل شــقة فخمة مُطلــة على مبنــى الكونغرس بالعاصمة الأميركية واشــنطن، ســاق على ســاق، لحم بعضه فوق بعض، قلادة ماســية نائمة على عتبات عنق شــفاف تتدلى منها ثلاثة أحرف انجليـــزية *R R O*، الحرفان الأولان اختصار لاسمها واسم زوجها، الحــرف الثالث اختصــار للقب عائلتهــا، الثلاثة الأحرف مجتمعة كان اســمها الدلع. في نهاية حرف الـ *R*، يبدأ انشقاق نهدين فاتنين برزا بنفور مــن حمالة صدر مخملية، كشــفت جانبًا عريضًا من بهاء صدرها المشوب بالحمرة، مالت باتجاه اليسار والتقطت علبة جعة بادويزر، أفرغتها في جرعتيْن إلى جوفها. كانــت العلبة الثالثة خلال عشر دقائق، قالت للســيناتور جــون بوجهايزر "إنهــا ظامئة جدًا"، تحمس الرجل المهم قائلًا "وأنا أيضًا".

في صبــاح اليوم التالي، لم تتعمــد "رقية نادر" إثــارة جلبة توقظ السيناتور النائم إلى جوارها، سحبت جســدها بهدوء، اغتسلت جيدًا، سرّحت شــعرها، وضعت قليلًا من مســاحيق التجميل، أحمر شفاه، اعتدلت في هندامها، قبــل أنْ تخرج امتدت ذراع الســيناتور متململًا في فراشه، مالت نحو شــفتيْه، تبادلا قُبلة دافئة، وفي غضون ثلاث دقائق كانت تجلس إلى جــوار "بعلها" في المقعد الخلفي للســيارة التي حملتهما بالأمس. "نجيب" الذي شرب رطل ويســكي واثنتى عشرة عُلبة بيرة،

لم يفُق من تأثير صداع نهش رأسه، وأثقل لسانه، قال بصعوبة مخمور "كيف جرى الأمر؟". أجابت بضيق أنَّ السيناتور لم يستخدم الواقي.

بنهاية السنة الأولى من يناير، حتى ديسمبر ٢٠١٢ كانت "رقية نادر" قد مرت على خمسين سيناتورًا وأربعة أعضاء بمجلس الشيوخ وستة صحافيين بارزين، منهم مسؤول صفحة الرأي بواشنطن بوست، وشاب أسود لم يتجاوز الـ ٢٥ ألفته صدفة في مقهى الفندق بينما كان زوجها في طريقه إلى صنعاء لتأسيس منظمة مجتمع مدني أَطلَق عليها اسم "حرية"، الشاب الذي كشف عن اسمه "مايكل" بدا فارع الطول بخصلات شعر مظفّر وجسد صلب وذراعين عريضتين، الناشطة الزينبية الممثلة لـ "جبهة الصمود" ضمن قوى الثورة المطالبة بإسقاط النظام في اليمن، فكّرت أنها لم تذُق طوال نشاطها المدني المحموم طعم الشوكولا الأميركي الأسود، في تلك الليلة، في الردهة المجاورة للجناح رقم ٤٠٤٥، في الدور الثالث لفندق سويس انترناشونال، سمعت عاملة التنظيف صوت استغاثة حادّ لامرأة تعاني في الداخل، تُكرر عبارة "*yes yes*"،هرعت العاملة الفلبينية إلى مديرها وأبلغته مخاوفها بوقوع جريمة، عادت بمعيته، وكان الصراخ قد بلغ نهاية الرواق، بات أكثر وضوحًا،وبعبارة أخرى "*oh my god*".

بنهاية العام الثاني، في غمرة انشغال الرئيس عبدربه منصور هادي بتوقيع اتفاقية مُذلة بدار الرئاسة مع وفد الحوثيين وبحضور المبعوث

الدولي للأمم المتحــدة جمال بنعمر، لم تعُــد رقية نادر وحيدة في شــوارع وغرف ومنظمات واشــنطن ونيويورك، تُضحي بكل ما تملك للتعريف بـ "حقيقة الصراع في اليمن"، بل انضمَّت إليها عشر ناشــطاتٍ محترفاتٍ على فترات متباعدة، ثلاث أخريات توجهنَ إلى باريس ولندن، نشاط دؤوب، جوائز عالميــة، حضور مكثف بوســائل الإعلام الأميركيــة والأوروبية. "رُقية" حدّدت للناشطات المتطوعات خارطة بمناطق وأسماء مطابخ التأثير في صناعة القرار الأميركي، علمتهنَّ كيفية "اســتخدام الوســائل المتاحة" للتأثير، وقوة الجاذبيــة والقدرة على الإقناع. منظمــة *mef* الإيرانية تولت تدريب المتطوعات على كل وســائل الجدل، وتكفَّلت بتزويدهنَّ بالصور والمعلومات المناســبة، أنتجت المنظمة أيضًا دليلًا زمنيًا مكتوبًا على صيغة بي دي إف للمَحاور والعناوين المطلوب ترديدهــا، وقائمة بالمصطلحات المرادفة للكلــمات الحادة. مثــلًا: لا تقــل "جريمة ضد الإنســانية". قل "انتهاك"، لاتكتب "أعمال إرهابية"، اكتب "أعــمال عنف"، لا تلفظ عبارة "الحكومة اليمنية" قل "حكومة هادي". وزِع الدليل إلى هواتف الناشطات المثابرات. رقية نادر التي كانت تؤدي مهمة "كبيرة الاستشاريين الحوثيين" في عاصمة الاستكبار العالمي "ندّدت" في تغريدة حزينة على صفحتها بتويتر "بانتهاكات" الحوثيين على المؤسسات الحكومية في صنعاء، ودعَت في مقال على واشــنطن بوســت إلى "وقف الانتهاكات المتبادلة بين قوات الحوثيين وقوات اللواء علي محســن وعدم التعرض لمنازل الآمنــين بالعاصمة"، في

منتصف اليوم الثالث لاتفاقية السلم والشراكة سبتمبر ٢٠١٤، ظهرت على قناة *CNN*، قالت بلغة إنجليزية سليمة "إنَّ الوقت حان لقبول مشاركة الحوثيين الحقيقية في السلطة والنظر بعين الحكمة إلى كل المظالم التي عانوا منها في الماضي"، المذيعة قاطعتها "لكن الحوثيين يطلقون شعارًا يدعو لموت أميركا.. كيف يمكن تفسير ذلك؟"، رقية البالغة من العمر ٣٥ عامًا كانت مستعدة لسؤال كهذا، طالما كان مثار جدال طويل مع كل الشخصيات السياسية والإعلامية التي التقت بهم. قالت: "الشعار عبّر عن مرحلة ثورية معروفة تمر بها أيُّ حركة جماهيرة ذات طابع دينيّ، إلا أنَّ الحوثيين الذين أطلقوا تسمية جديدة على أنفسهم وهو "أنصار الله" خاضوا بنجاح معارك للحد من عناصر الإرهاب المنتمين لتنظيم داعش في دماج بصعدة، وفي عمق صنعاء حيث كانت جامعة الإيمان ترعى مثل تلك التوجهات المتطرفة، وقدّموا أنفسهم على نحو جيد في مؤتمر الحوار الوطني الموسع، وقد أكسبهم ذلك خبرة سياسية مميزة، وأثبتوا بالتجربة والبرهان أنهم قادرون على تطوير سلوكهم السياسي والتحول إلى حركة مدنية فاعلة في التغيير، ومن الخطأ إدانتهم على كل شيء طالما أنَّ نواياهم طيبة، مع مراعاة نقطة في غاية الاهمية أنهم جزءٌ من مكونات الشعب اليمني ومعبّرين عنه، كما يمكن التأكيد اليوم أنهم صاروا الصوت الأعلى للزيدية في شمال اليمن، وهذا يعني أنهم تعبير قوي لأكثر من ١٠ مليون يمني على أقل تقدير" وأضافت بحزم "يجب ألا ننسى ذلك!".

في ليلة غير مقمرة بتوقيت صنعاء، كانت الساعة تشير إلى الحادية عشر قبل منتصف الليل، وبينما عناصر حوثية تقتلع أثاث منزل الشيخ "حميد الأحمر" بنشاط خارق وتضعه بعناية في جوف حاويتيْن عملاقتيْن، هبّت نسمة رطبة على شرفة المنزل الذي توهجت أضواء جدرانه وبدا كقصر أسطوري، كان "حسين العزي" رئيس المكتب السياسي لأنصار الله جالسًا فوق أريكة سوداء وثيرة إلى جوار الشرفة يشاهد ترجمة بالعربية لحوار "رقية نادر"، حين انتهى من ذلك، بعث رسالة إعجاب نصية إلى هاتفها، بعد لحظات جاءه الرد في ثلاثة أشكال إيموجي "قلب ووردة وشفتين".

في صباح ٢٤ سبتمبر ٢٠١٤، زار حسين العزي حاملًا مسدسه الشخصي وهاتفه على وضعية التسجيل منزلَ الرئيس السابق علي عبدالله صالح، مبعوثًا برسالة من "عبدالملك الحوثي". الرئيس السابق ومعه "عارف الزوكا" أمين عام حزب المؤتمر الشعبي و"يحيى الراعي" رئيس مجلس النواب تحلقوا حول طاولة مستديرة في قلب حديقة المنزل الكبير، حجبت مظلة اخترقت بعمود حديدي منتصف الطاولة إلى القاع شمس صنعاء المؤذي لجلد صالح المحترق. انضم حسين العزي إلى ثلاثتهم، ودار نقاش طويل. قال العزي إنَّ خلاصة رسالة سيده تقول الآتي "أنتم الدولة ونحن وراءكم". على بُعد خطوات وقف مسؤول الاتصالات الخاص بالرئيس السابق "علي معوضة" مُطوّقًا

بأربعة هواتف نقالة مغروسة وراء حزام سرواله، قال صالح لمبعوث الحوثي "إنَّ عليهم تسليم مقرات الدولة إلى موظفيها"، طمأنه "حسين العزي" أنها مرحلة مؤقتة حتى ضمان سريان اتفاق السلم والشراكة. صمت قليلًا. حدّق بعينين ضيقتين في وجه صالح، همّ بسؤال، انفرجت شفتاه، رأسه مال إلى الأمام. قاطعه "الزوكا" بتأكيد "رفض المؤتمر الشعبي للاتفاق وأنَّ عبدالكريم الارياني لم يكن يمثل إلا نفسه"، ضحك العزي بعصبية وأشار إلى صدره: أنه لم يكن موافقًا على توقيع الشق الأمني من الاتفاقية لكن رفض المؤتمر الشعبي العام للاتفاق من أساسه سيضع الجميع في وضع صعب. "يحيى الراعي" ظل صامتًا طوال ساعتين ونصف، تناولوا تمرًا صقعيًا، شربوا قهوة مُرة. أمسك صالح كف حسين ودار به في الفناء، "معوضة" رفع مظلة يدوية سوداء على رأس صالح، طاووس مغرور من مقتنيات الرئيس السابق يمشي بخيلاء وثِقة على مقربة من قدمَي حارس صامت، اقترب صالح بزائره إلى البوابة الداخلية الأولى، بعث معه رسالة شفهية إلى سيده، من بعيد لوّح "حسين العزي" للجالسين، ثم توارى خلف الباب. على الطريق المؤدي إلى شارع حدّة أوقف زر التسجيل في هاتفه، استمع عبر سماعة بلوتوث طراز سامسونج لإعادة واضحة لكل ما دار بينه وصالح. في طريقه إلى المكتب السياسي لأنصار الله بحيّ الجراف، كانت سيارة لاندكروزر موديل ٢٠١٢ براكب وحيد وسائق عجوز تدلف بوابة دار

الشيخ عبدالله بن حســين الأحمر. تفحَّص حسين العزي هوية الراكب، بينما كان يشير إلى سائقه بالتمهل، أطل برأسه من نافذة السيارة، حدّث نفسه "إنه هو". صادق الأحمر النجل الأكبر للشيخ الراحل، زعيم قبيلة حاشد الأكثر نفوذًا، مَن توعَّد بطرد علي عبدالله صالح على ظهر "بغلة"، كان قد ترجّل في حوش والده، أسند ظهره إلى الجدار من الداخل، تأمل دارهم الذي كان رمــزًا للقوة والهيبة. طاف بعينــيْن حزينتيْن كل زوايا المبنى، النوافذ مشرعة إلى الداخل، وأجزاء من ســتائر ممزقة ترفرف في الهواء، صورة والــده الضخمة مائلة إلى الجانــب الأيسر وقد احترقت أطرافها السُّفلى، القمريات في الأعلى مهشمة. أطلق صادق الأحمر زفرة حارة وجلس خائرًا في مكانه، طلب من ســائقه أنْ يُحضر طعام الغداء، حين انتهى مــن الأكل، طلب متكئًا وفرشًــا صغيرًا وبضــع قناني ماء معدني، سأله ســائقه لِمَ كل هذا؟ أجاب بلكنة تشبه حديث والده: أريد أنْ أبصر ثورة أخي "حميد".

في تلك الأثناء، على مســافة تبعد ١٠ ألف كيــلا متر كان "حميد الأحمــر" في حديقة منزلــه الفخم بضواحــي مدينة اســطنبول التركية يشــاهد فيلمًا وثائقيًا تعرضه قناة الجزيرة عن "ثورة الشباب في اليمن". الأحمر الذي اختار المنفى قبل اقتحام الحوثيــين للعاصمة صنعاء بأيام، جرع كأسًا من العنب التركي الأحمر، أطفأ شاشــة الكريستال الذكية، وبدأ إحماءه اليومي في نهايات إســطنبول الفاتنة، كان يجري وحيدًا على

ممشى شبه خالٍ من المارة والضجيج، ســمع بالجوار مواء قطة سيامية، عجوز تركي بشــارب ضخم يدور طرفاه حول بعضهما يؤدي حركات بهلوانية لبعض الصبية الذين ابتاعوا منــه مثلجات فراولة، امرأة غريبة من الطرف الشرقي للحيّ المجاور تقتحم حلبة الممشــى الطويل بكنزة بيضاء ضيقة، ونصــف سروال إلى ما قبل الركبــة. تأمل "حميد الاحمر" اهتزاز أردافها، بريق ساقيها الفضيتين اللامعتين، شعرها المعقوص إلى أعلى، طاقيتها الثلجية، تمتم بتســبيح يُثني على جمال الخلق وبهاء الخالق. في الســاعة الأخيرة قبل منتصف الليل بدقائق، تنبّه حميد الأحمر لعَرق كثيف على قميصه الرياضي الأخضر، انحنى ضاغطًا بكفيه على ركبتيه. أطلق أنّة متعبة. تلفَّت حوله، كان قد ابتعد كثيرًا عن منزله، التقط هاتفه من جراب جلدي أزرق معلق على خاصرته، أبلغ سائقه بمكانه وجلس متعرقًا على كــرسي حجري في ناصية الشــارع يطالــع مواقع الأخبار المحلية لليمن. مرر بطرف ســبابته على شاشــة الهاتف. شــاهد صورة حديثة باسمة للرئيس الســابق "علي عبدالله صالح" وفي أصابعه جريدة اليمن اليوم، وعنوان مثير بارز باللون الأحمر على رأس الصفحة الأولى "الحوثيون ينهبون منزل حميد الأحمر".

تلك الليلة، أصابة الأرق، تذكر سنواته الأخيرة في صنعاء، حين قعد تحت أقدام الرئيس عبدربه منصور هادي يتوســله المدد العسكري لإنقاذ جيوشــه القبيلة من هزيمة محققة عــلى أرض خيوان والخمري،

معقلهم الرئيسي في حاشد، تذكر المشـاهد الأولى التي وصلته إلى هاتفه لعملية تفجير منزلهم الكبير في مسقط رأسـهم بعمران، صوت شامت من المفجرين يقول "باي باي حسونة!"، تذكر شقيقه "حسين" وخسائره المالية الباهظة لتمويـل حروبه على الحوثيين، تذكـر غضبه من الجيش وشعوره المرير بقسـوة الهزيمة وانحسـار النفوذ وضياع جزء كبير من قدرة عائلتهم على إحداث تغيير كما كانت تفعل طوال قرنين سابقين في حالات مدٍّ وجزر لم تكن لتنتهي.

حميد الأحمر، الرجل الأكثر جدلًا في اليمن يهرول عُمره في المنفى بعيدًا عن صراع الحرب، منغمسًا في استثماراته وأصوله المالية التي أنقذ بعضها من صنعاء ليبدأ رحلة جديدة في تنميتها.

في ١ سـبتمبر ٢٠١٤، أعلن عبدالملك الحوثي مرحلة تصعيدية جديدة ضد الحكومة بعد أقل من ٢٤ سـاعة على عودة "لجنة الوساطة الرئاسية" برئاسـة نائب رئيس الوزراء أحمد عبيد بن دغر. الحوثي ظهر في قناة المسيرة الناطقة باسـمه يتهمها بالكذب. بن دغر أعلن في تقرير شامل بثته قناة اليمن الرسـمية أنَّ زعيم أنصار الله لم يُبدِ تجاوبًا حقيقيًا لإحلال السـلام في اليمن. الرئيـس عبدربه منصور هادي لم يشـعر بالخطر، شرب شـايًا في مكتبه، ثم أمر وسـائل إعلامه لاتهـام إيران بأحداث العنف الدموية التي تجاوزت محافظة "عمران" ونهشـت جسد قائدها العسكري المشلول "حميد القشيبي".

عبدالملك الحوثي اســتمع إلى خطابه قبل بثه، شاهد نفسه مرتبكًا، هائجًا، قلقًــا. ذراعاه تتحركان على غير هــدى كأخطبوط أصيب بصرعة في الرأس، قال لمعاونه "سأُعيد الخطاب". المصور الشاب "محمد الرازحي" تلقى توجيهًا بالعودة إلى موقع التصوير. من بين ســتة أشــخاص في هذا العــالم، كان "الرازحي" يعــرف تنقــلات "عبدالملك الحوثــي" ومخابئه. بعد ســاعتيْن، غادر "عبدالملك" ورشة تصنيع زيوت مســتعملة بالطرف الغربي لمديرية ســحار. ألقى خطابه بداخل غرفة معزولــة عن الصوت، لم يراجعه. أســند المهمة إلى "رفعت شــيرازي" مشرف وســائل التواصل بالخلية الإيرانية. حين أغلق على نفســه باب الغرفة في مخبئه الثاني بمزرعة "صالح هبرة"، أخرج دفترًا قديمًا من علبة خشــبية مزخرفة بنقوش فضية قديمة كانت أمه تســتخدمها لتحصيل المال الذي يتبرع به الريفيون لوالده لقاء قــراءة الفاتحة المباركة، في الصفحة الخامســة والعشرين، كتب اســم ابن جدّه "محمد عبدالعظيم الحوثي" بجانب عنــوان بارز "قائمة الخصوم" وخطّ حوله دوائر متعددة. وضع علامة إكس على أربعة أســماء في القائمة المجدولة. عثمان مجــلي، صغير بن عزيز، علي محســن الأحمــر، عبدالمجيد الزنــداني. رفع القلم إلى أعلى، الاســم الثاني في القائمــة "عبدربه منصور هادي"، كتب أمامه "كش ملك"، غرز ســنّ القلم في منتصف حرف العين للاسم الأول في القائمة "علي عبدالله صالح".

وأغلق الدفتر.

- ٨ -

صوت سمعتُه من قبل ينادي "شـــاهين.. شاهين "، كنتُ أطوف صنعاء من شـــارع الزبيري إلى باحة باب اليمـــن، جولة ٤٥، الالتفاف يمينًا عبر طريق إســـفلتي يُفضي بي إلى ميدان السبعين، ثم يسارًا، شارع الخمســـين. صُور "حســـين الحوثي" ترتفع لأول مرة في ســـماء صنعاء، على أعمدتها، شـــعارات الصرخـــة "الله أكبر. الموت لأمـــيركا. الموت لإسرائيل. اللعنة على اليهود. النصر للإســـلام" تُلطّخ جدران المدارس والمستشفيات، تحت الجسور، وفوق أبنية منطقة حزيز جنوبًا، والجراف شـــمالًا، صُنِعت شـــعارات مُصغرة بحجم الكف تُلصق على واجهات الجنابي. رجل الأعـــمال الغراسي أمر عُمّاله بطباعـــة نصف مليون كيس دعائي يحمل شـــعار الصرخـــة، تكفلت لجـــان أنصـــار الله بتوزيعه في الأماكن العامة وصالات المناسبات، كل شيء في تلك الأيام الصنعانية كان ثوريًا، الشمس أيضًا كانت ثائرة بدرجة حرارة تصل إلى ٣٨ مئوية، الأغبرة تتطاير في الهواء بعدوانية تنثر ذراتها على العيون. سائقي النحيل بجسد كقصبة يابسة من بلاد رازح، يتذكر معارك اللواء "علي الجائفي" في الحربين الخامســـة والسادســـة، يـــشرح تفاصيل "عـــدوان الجيش"

والقبائل على المجاهديــن، فقد اثنين من عيال عمّــه أيّدوا الجيش، قال إنَّ المجاهدين أخذوا بثأر زملائهم خلال شــهور الهدنة "إنها الأوقات المناسبة لتصفية الخصوم في أعماق صعدة". أدرتُ وجهي نحوه وسألته مباشرة "بمَ شــعرت حينذاك؟"، أخرج رأســه من النافذة. نفث نخامًا سائلًا تطاير في الهواء، وتلى آية من القرآن (قال رَبِّ بما أنعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أكونَ ظَهيرًا لِلْمُجْرمينَ). مسحتُ رأســه بباطن كفي اليسرى، وقلتُ مُشجّعًا "أحسنتَ!".

حين ســمعتُ ذلك الصوت ينادي، كنت أخطــو بقامة فارعة عتبات باب مطعم الشام بشارع الخمسين، يطوِّقني خمسة مرافقين شعث غُبر لا يعصونني ما أمرتهم. همســات رواد المطعم، عيونهم، رؤوسهم تلاحقنا، تدور معنا حيــث دُرنا. تترصدنا بفضول لا يشــبع. وجودنا كـ"حوثيين"، أشكالنا، لباســنا، لهجتنا، شيء غريب في عاصمة لم تعتد هذا النوع من الطوفان القادم من الشــمال. شــاهدته يقترب، شاب في أوائل العقد الثالث من العُمــر، أكل البرَص جزءًا من وجهه وأصابعه، بشرته قمحية، وأنف مســتدير، أســنان بيضاء متراصــة بعناية وبقايا شــارب نتفه بأصابعه. حين رأيتُه عرفتُه، صافحتُه بود، ربما عانقته –لا أتذكر–، إنه "عبدالحليم المرتضى"، صديق قديم، منذ طفولة غضّة، كان الأول على الصف في ســنوات التعليم الأساسي والثانوي، يحمله سائق والده "الحاج ســميح" إلى المدرسة عند شــفق كل يوم. أول مَن يحضر

وآخر المغادرين، لم يفتر يومًا، لم يتراجع عن موقعه الأول. مدير المدرسة الذي ينتمي إلى عائلة هاشمية كان يُقرّبه إليه، حين يخاطبه يُوقّره، يقول: كيف ابنُ سيدي؟، وإذا ما تعثر به صُدفة بين أروقة الصفوف يُحمّله تحيات حارة خاصة إلى والده.

ذات ربيع، حين تخضرُّ الحقول وينشغل الزُرّاع بزرعهم وقطافهم، وبينما كُنت أبتاع لنفسي وجبة صباحية من مقصف المدرسة "خبزًا محشوًا بالفول والطعمية. قارورة سينالكو غازية". رأيته واقفًا على بُعد خطوات يراقب الطلبة بذراعين معقودتين على صدره. ناديته وابتعتُ له مثل فطوري، تنحنح متعذرًا بحرج قليل: أنا لا آكل الفول. أهااا، وماذا تأكل؟ برقت عيناه في خفوت وأردف: كِبدة. تلك اللحظة تلبّسني كرم القبيلة فمنحته ما تمنّى. حين رأى الخبز دافئًا بين أصابعه ورائحة الكِبدة المُقطعة كالبنان المرصوص، شهقت روحه، توسّع بؤبؤ عينيه، ارتعشت عضلات وجهه. التهمها بشهوة داعرةٍ في فيلم إباحي، قضم أطرافها بحنان ولسانه يدور حول شفتيْه وشدقيْه مُصدرًا آهة مكتومة حارة من أعماقه. حين انتهى من نصفها، استدار نحوي بعينين غامضتين، سألني: ماذا تأكل؟.

"فول وطعمية"

تعلّقت على طرف شفته بسمة ساخرة، هزّ رأسه متفهمًا: أيوه. طعام القبائل!

- لم أفهم قصدك.

أصدر زفرة حارة، رفع رأسـه إلى الأعلى، نحو شجرة قديمة في فناء المدرسـة منذ أيام التشجير، وثبات عصفور نشـط يتقافز بحيوية من غصن إلى آخـر، حفيف هواء رطـب يهز أوراقهـا بلطف، قال: وظيفتكم في الحياة كأبناء قبائل هي "خدمة السيد ومحبته"، لمعت عيناه، وتبدّلت لهجته، صوته، نبرته، تحدث كمن يُكلم نفسه "ألا ترى السادة مظلومين في كل مـكان؟! خاصمنا النواصب والحاقـدون أنصار بني أمية، خاصموا نسـل النبوة ووضعونا في مكانة واحدة مع بقية الناس وعامتهم"، هزّ كتفيه بحسرة وأضاف "خرجوا عن تعاليم الله وأوامره فقطعوا علينا الخُمس لإرغامنا قبول الصدقـات المحرَّمة علينا، أرادوا إذلالنا في العيـش وإفقارنا، كما فعـل أبوبكر بفاطمـة الزهراء حين أخذ عليها عنوة أرض فـدك، مُتحججًا أنَّ الأنبيـاء لا يورَّثون. هذا الخطّ وهذا النهج الشـيطاني مايزال في صراع مع العـترة المطهرين إلى يومنا هذا". اعتصر بأصابعه النصف الباقي من الخبز المحشـو بالكبدة الطازجة، بدا متألِّمًا، غاضبًـا، حزينًا. وكنتُ جالسًـا كالمبهوت الغبيِّ لا أعي قوله وإيماءاته ولا متـى حفظها وتعلمها ومـن علّمه مواقفَ وقضايا لم تكن مذكورة في كتب المنهـج؟!. شيء ما في داخلي كان يأبى منطقه وبراعة تسـويقه لمظلمة مُثيرة للجـدل، لا أعرف "ماهي أرض فدك" وأين تقـع؟ ولا ما جرى حقيقة بين أبي بكـر وفاطمة وما الذي

يعنيه الخُمس؟، ســألتُه "هل تعني أنك أنت شــخصيًا مخلوق مميز؟"، ارتفع صوته بحماس مُحاور تدرّب جيدًا: لا.. ليس هكذا بهذه الطريقة الشــخصية، أقصد أنَّ آل البيت أصلًا يجب أنْ يكــون لهم مكانة مميزة بين المجتمع كما كانوا مميزين، وكما اصطفاهــم الله، ومَن يعترض على ذلك فإنما يقول ما قاله إبليس لربــه حين عصى اصطفاءه لآدم، ويفعل كما فعل أبو جهل وغيره مــن المشركين الذين رفضوا نبــوءة "جدّي" محمد واصطفاءه من بني هاشــم" اســتدركتُ متهكمًا: ومن المشركين أبولهب وهو من بني هاشم وجدّك أيضًا!.. أجاب ببديهة حاضرة كمن يقرأ من كتاب للرد على الأسئلة الشــائعة "قال تعالى: (لا ينال عهدي الظالمين)، قطع الحديث صوت صفارة انتهاء الراحة، ابتلع ماتبقى من وجبته كتمســاح، برزت أنيابه وأبان فكًا ضخمًا، كــرع إلى جوفه قنينة المشروب الغازية كاملة، ثم تجشــأ بصوت أفزع العصفور وأجبره على الابتعاد، وبينما كُنّا نهمُّ بالنهوض، طرقتُ ظهره مرتين "يهنأ"، لم يُعلّق، كان منشــغلًا بحمل حقيبته على ظهره، قلتُ معترضًــا: ألم تمر عليك كلمة شكرًا!، ابتسم بخبث وأصابعه تُســوي الحقيبة على ظهره مُعلقًا "كيف أشكر شخصًا أعطاني شــيئًا من حقي عليه كسيِّد؟!"، وضحك مُبتعدًا، اختفى في الــرواق، جلس في الصــف الأول، وصوت معلم الصف يشرح تاريخ الثورة الفرنسية!

هزّتني ضربـــة خفيفة عـــلى ذراعي، قذفتْ بي مـــن زمن صعدة ومدرسة حسان بن ثابت إلى قلب صنعاء، ســـمعتُه يهذي بكلمات عن "السيد عبدالملك"، يســألني "تتغدوا معنا"، قبل أنْ أفارقه مُعتذرًا، مال برأســـه نحوي وهمس: ألم أقل لك إنَّ المســـيرة القرآنية لا بُد أنْ تنتصر وإنَّ حزب الشيطان وأهله هم الخاسرون؟. قلتُ مُعلقًا: (ويأبى الله إلا أنْ يُتِمَّ نورَه وَلَوْ كَرِهَ الكافِرونَ). شـــدّ أصابعـــي بأصابع غليظة يغالبها البرَص ونشـــبت أظافره المتســـخة بمعصمي، ثم غادر نحـــو مائدته، وصعدتُ بحرسي إلى الطابق العلوي.

قبل عشرة أيـــام، طافت أرجاء صنعاء مســـيرات ضخمة، كثافة مهولة رفعت شعار "لستَ الشـــعب ياحوثي". انتقل حماس الرفض إلى محافظات أخرى مثل، ذمار، عمران، المحويـــت، حجّة، إب. في تعز لم يبق مخلوقٌ يمشي على اثنتيْن أو أربع في منزلـــه. كل الكائنات خرجت، شـــاركت، رفضَت بغضب "غزو صنعـــاء"، بعد ذلـــك بيوميْن، قطع الحوثيون الطريق المؤدي إلى المطار، خرجت ســـبع قوافل مســـلحة من حيّ الجراف للمطالبة برحيل حكومة "محمد ســـالم باسندوة"، وصفوه بـ "الدُمية" في أصابع حزب الاصلاح وقوى الإرهاب. عبدربه منصور هادي اســـتقبل وفدًا من الناشـــطين، قال بثقة: لن أرحل عن صنعاء، ســـأحميها بنفسي وأولادي. بضعـــة منهم جلســـوا إلى الرئيس في مقيل العصر، ناشـــط غضوب قال له: يجب أنْ تُعلن التعبئة العامة على الملأ،

وانحدر صوته فجأة إلى الذُعر: الحوثيــون قادمون. فزّ هادي في وجهه وأســكته بإشــارة من يده. التقط قنينة ماء حدّة، رشف رشفتين، مسح شفتيه، ثم اســتند إلى الجدار وعلى متكئه ونهض، غاب في الرواق، بعد دقائق عاد مُحمّلا بملف كرتوني أصفر، أشــار إلى الناشط ليقترب، ابتلع المسكين ريقه، تقدّم متحرجًا، انحنى على الرئيس الذي بدأ يُقلّب أوراق الملف، وبصوت مطمئن تحدث وأصبعه تشير إلى خرائط مُصورة: هذه كل مواقع الحوثيين المســلحة، مخازنهم، عتادهم، أســلحتهم. كل شيء موجود ومحفوظ ومعلوم، أول ما يتجرأون على دخول صنعاء سيضرب الطيران. ثم رمش عينيْه هامسًا "الأميركان وعَدوني بذلك".

المبعــوث الأممي "جمال بنعمــر" كان قد حطّ رحالــه في صنعاء، فُتحت له المعابر المُغلقة، اتجــه من فوره إلى منزل الرئيس، الناشــطون غادروا لتوِّهم، "بنعمر" القادم من ريف الناظــور المغربية، راقب رُقعة شطرنج بداخل مكتب عبدربه منصور هادي الخاص، في المنتصف بين مقعده وأريكة الرئيــس، توقفت أحجارها في جولة لم تُحســم نتائجها، البيدق الأســود كان قريبًا مــن الملك الأبيــض، أثارت الخيلــة انتباه بنعمر، حَسَبها في رأســه، عدّ النقلات والمربعات. تبسّم ثم رفع رأسه إلى الرئيس ناصحًا "فخامته" تغيير الحكومة "توازنات المشــهد السياسي تؤكد أنَّ الجميع بات على مســافة واحدة، المؤتمــر والإصلاح وأنصار الله"، طرقع أصابعــه، هنا يتخلص الرئيــس من ابتزاز "قــوى الثورة

والقوى التقليدية" والتفــرغ لبناء اليمن الاتحــادي. أراح بنعمر ذراعه على صدره وقد اكتســى صوته جدّية بالغة "الأمين العام للأمم المتحدة أبلغني رسالة شفهية إلى فخامتكم عن اســتعداده تقرير العقوبات التي ترونها مناسبة بحق الشخصيات والمؤسسات المعرقلة للعملية السياسية في بلادكم". ذكّره "هــادي" بفخر أنه الرئيــس الأول والوحيد بين كل رؤســاء العالم، واليمن البلد الاســتثناء في كوكب الأرض التي اجتمع في عاصمتها مجلس الأمن لأول مــرة في تاريخه. راق لبنعمر هذا التنبيه، وأردف متحمسًــا "ماذا يعني هذا فخامتكم؟" وأجاب على نفسه "يعني أنَّ العالم كله معكم، وأنَّ صنعاء محروسة بعين الأمم المتحدة، ولا ننسى أنَّ اليمن مُدرجة ضمن البند الســابع؛ وهذا يعطيكم القوة والأفضلية في منع أيِّ تجييش مُعادٍ لشرعية فخامتكم من أيِّ فصيل عسكريٍّ سواءً كان من الحرس الجمهوري، أو الفرقة الأولى مدرع".

جمال بنعمر في عُمره الذي تجاوز الستين لم يكن قلقًا من فشله، كان يُعبّر بثقة عن حدوث مُعجزة على يديه، إنه الرجل الذي نجح في إزاحة الرئيس علي عبدالله صالح. كان ذلــك كافيًا له كمبعوث أمميّ. مهمته انتهت، إلا أنه لم ينتهِ بعد، كان قد نســج بدهاء خيوطًا جديدة للعبة أخرى خارج ســياق وظيفته كـــ "مُيسّر"، انحاز في الســاعات الأولى لتوقيع المبــادرة الخليجيــة إلى "قوى الثورة"، قــال في احتفال التوقيع كلمات قاسية في حقِّ الرجل الذي أمسى نصف رئيس. حشد

الأمم المتحدة خلفه، وحمل بيــده القرارات الجمهوريــة إلى المبعدين من وظائفهم من خاصة صالح وأقاربه، هدّدهــم بالعقوبات الدولية وملاحقتهم كمجرمين، أدار صفقات التغيير بمهارة استغلت انشغال صالح في بناء تحالفات جديدة.

بداخل جناحه الخــاص بفندق "موفنبيك" كانــت أمُمٌ تدخل وأمُمٌ تخرج، ســيل من السياســيين والمفكرين والكُتّاب، حين أبدى مراســل صحيفة الشرق اليمنية اســتغرابًا ذكيًا في غرفة "جال بنعمر" وســأله: كيف يمكن لقوة مُســلحة مثــل الحوثيين ولديهــا عقيدتها العنصرية أنْ تشارك حصريًا عن أبناء صعدة وتتسلم ملف قضيتهم في مُحددات قضايا مؤتمر الحوار الوطني؟ أحسَّ المراســل في آخر حروف ســؤاله استحســانًا غامضًا لم تُعبر عضــلات وجه جمــال بنعمر عنه بوضوح، لكنه أحسَّ ذلك، دماغه كان متحمسًا لإلقاء سؤال إضافيٍّ. قال: وكيف يمكن الاطمئنان إلى الحوثيين وآلتهم العســكرية تطحن قرى دماج وتهدد الجوف وتُصفــي كل خصومها في صعدة في الوقت الذي يُرسلون مجموعة من المهرجين لإلقاء محاضرات عن الديمقراطية والدولة الطبيعية، و..

قطع بنعمر سيل اســتغرابه بســؤال: ما الذي تريده؟، ارتبك المراسل وأعاد رأسه إلى الوراء قليلًا، لم يكن يتوقع أنْ ينتقل إلى موقع الدفاع فجأة، ذلك الســؤال أربكه، ثم ألقى منفعــلًا إجابة أطاحت

به خــارج قائمة المدعوين الدائمــين إلى وكر المبعــوث، قال: عليهم أنْ يســلّموا السلاح ويشــكلوا حزبًا ويتقدموا للتعبير بكل أدب عن مطالبهــم. لم يُعلق جمال بنعمــر، لم يكن مضطــرًا، كان يعرف ذلك الســؤال وريبته، كان قادرًا على تحليل معاني الذعر في حروف قائليه، يرى جفاف حناجرهم، وارتعاشــة أجفانهــم وأرق لياليهم، لأجل ذلك لم يكن صالونه يخلو من صوت مؤيد، صــوت جامح. في تلك الخُلوة، على مقربــة من نافذة ضخمة تكشّــفت مــن وراء زجاجها اللامع مآذن جامع الصالح الخمــس كان "عبدالباري طاهر الأهدل" نقيب الصحافيين الأسبق جالسًــا، من أجل ذلك لم يُجب المبعوث ولم ينتظر طويلًا، نهض النقيب متوترًا من كُرسيه، مدّ ذراعًا داكنة ضربها صقيع خيام الثورة حتى تشــققت كخرطوم فيل، نثر رذاذ لعابه على المراســل، صاح بانفعال "وهل تريد أنْ تُعيد علي صالح وعلي محسن وعصابة الحُكــم مرة أخرى ليكــرروا حربهم على صعــدة من أجل نفوذهم؟" ورفع "عبدالباري" رأســه إلى أعلى، إلى السقف، هز رأسه بعنف مُكررًا "لا لا، ولا في أحلامكــم!، هذه العصابة التي لم نصدق أننا تخلصنا منها لن تعود، نحن أمام توازنــات جديدة، ومعالم حرية وآفاق وطن جديد، وطن حقيقيّ لاظالم فيه ولا مظلوم" ونقر صدغه الأيمن برؤوس أصابعه قائلًا "اعقلوا".

الرئيس هادي سأل بنعمر ليلة ١٢ سبتمبر ٢٠١٤: "ماذا يريد الحوثيون"؟

– يريدون تشكيل حكومة جديدة، ويؤكدون أنهم لا يريدون أنْ يكونوا طرفًا فيها هم أو أحد أعضائهم.

سألة الرئيس مرة أخرى: ماذا تقترح أنت؟

– الحكومة هي الحلُّ الأمثل لاستيعاب كلِّ الأطراف.

سأله هادي أيضًا: ماهي الحصص الأمثل للحقائب الوزارية؟

– سيتقلص وزراء علي عبدالله صالح، ونمنح حزب الحق مقاعد أكثر.

– مَن طلب ذلك؟

الحوثيون؟

ضحك الرئيس.. ما الفرق إذًا، ما الفارق بين حزب الحق وأنصار عبدالملك؟.

بادله جمال بنعمر ضحكة مكتومة ولم يُعلّق، قبل أنْ يغادر مكتب الرئيس ومنزله، التقطت أصابعه خيلًا أسود على رقعة الشطرنج، أربع نقلات. سقط الملك، نفض يديه ممازحًا: الآن انتهت المعركة.

بعد أربعة اشهر، حاصر الحوثيون منزل الرئيس عبدربه منصور هادي، حاولوا إرغامه على تعيين نائب له وقائمة طويلة من القيادات

العسكرية والأمنية، صعد صالح الصمّاد وعشرة مسلحين إلى غرفة الجلوس في الطابق الثاني، وضعوا مسدس جلوك أميركي فوق رقعة شطرنج مطوية إلى أسفل، قال أبوعلي الحاكم بصوت بارد كالجليد إنَّ أمامه مهلة ٢٤ ساعة فقط. حين غادروا لم يكن الرئيس يملك هاتفًا، سُحبت كل الهواتف وقُطّعت خطوط التلفون الأرضي. الرئيس البالغ من العمر ٧٢ عامًا أصيب بغشية مؤقتة، أفاق بعدها على صوت فيصل علوي يُغني في قناة آزال "شنشني شنشني، يامطر رشني"، سأل نفسه مَن أشعل التلفاز؟، خطى بتثاقُل نحو مكتبه، تصفَّح قائمة المطالب الحوثية. صالح الصماد نائبًا لرئيس الجمهورية. طه المداني وزيرًا للدفاع، عبدالكريم الحوثي وزيرًا للداخلية.. سبعون اسمًا ومنصبًا. لم يكونوا بانتظار شيء سوى إمضائه، جرّة قلم. تعيين نائب له يعني استخدام شرعيته كقفاز لنهب كل شيء وتغيير كل شيء، تذكر حسني مبارك، عمر سليمان، النائب أطاح بالرئيس، غمغم "لن أسمح بحدوث ذلك!"، الرئاسة التي لم يكن هادي يطمح لها، وجاءته كقدر، لن يجعلها هانئة لمن أداروا الانقلاب وتآمروا عليه. سأل نفسه "أين السفير الأميركي؟ لم أنا معزول هكذا؟ لماذا لم يتدخل أحد كما وعدني بنعمر. آه هذا القحبة". أحسَّ حرقة في حنجرته، بصق على الجدار، ثم استوى على كرسيه لآخر مرة، كتب استقالته إلى مجلس النواب بغالبية أعضائه وولائهم لـ "علي عبدالله صالح". أراد الحوثيون الرئاسة وأغمض

صالح عينيه عنهم، كبّل ذراعيه وتواطأ معهم، ليأخذوها إذًا، سيقذف الكرسي في حوش صالح ويتفرج.

حين سمع الحوثيون النبأ عبر وسائل الاعلام أحسوا بالصدمة، هرعوا إلى مجلس النواب، وضعوا خمس عربات مدرعة على محيطه وأغلقوا الباب الكبير بسلسلة فولاذية. عضّ يوسف المداني شفته السفلى مُغتاظًا "لن نعيدها إلى علي عبدالله صالح مهما كلفنا الأمر، الموافقة على استقالة هادي من البرلمان يعني تنصيب يحيى الراعي رئيسًا مؤقتًا لمدة تسعين يومًا تنتهي بإجراء انتخابات رئاسية". ضرب المداني بقبضته طاولة خشبية تحلَّق حولها محمد علي الحوثي، يحيى بدرالدين الحوثي، أبوعلي الحاكم، وشقيقه طه المداني، صائحًا فلماذا إذًا قُمنا بثورة!. في تلك الأثناء كان عبدربه منصور هادي، مسترخيًا على فراشه، يحدّق في السقف، ثم يضحك، يبتسم، يحدق ثم يقهقه. كان يعرف أنه العقبة الوحيدة بين شهوتيْن، شهوة الحوثيين إلى السلطة المطلقة، وشهوة صالح في استعادة نفوذه والانتقام لإرثه وتاريخه وجسده المحترق. مال الرئيس المُستقيل على جنبه الأيمن، لوى ذراعه تحت جمجمته. ثم هوى إلى نوم عميق.

بحلول الذكرى الخامسة لاختطاف مراسل صحيفة الشرق، انتشرت صور أطفاله على وسائل الإعلام يحملون لوحة بيضاء صغيرة مكتوب عليها: أين والدنا يا عبدالملك؟

عميد الصحافيين اليمنيين الأسبق عبدالباري طاهر الأهدل لم يصدر بيانًا لإدانة ما حدث. جمال بنعمر كان في طريقه إلى حانة لاكوانتينا بجادة نورفلوك ستريت بنيويورك، حين وقفت بجواره "رقية نادر" على سيارة (كاديلاك) سوداء، أشار بكفيه مسترعيًا انتباهها، "رقية" لم تلتفت، كانت منشغلة بمداعبة عضو سيناتور شاب في الكونغرس الأميركي، دفعت بيدُها اليسرى خصلات شَعرها إلى الوراء، رأسها غاص في حِجر السيناتور، وفي جراب المقعد الأمامي من الخلف تدلت أوراق مكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية. في الصفحة الأولى عنوان باللون الأحمر "مشروع قانون وقف تصدير الأسلحة الأميركية إلى السعودية". السيناتور المسترخي في مقعده نشر بعد ساعات صورة طفل يمني ميت تحت أنقاض مبنى تعرض لقصف صاروخي. كتب عبارة واحدة "لنوقف هذا!".

- ٩ -

بـــدأت المطاردة، ثـــلاث ســـيارات معتمة انطلقـــت مثل طلقة بارود، علي عبدالله صالح وابنه مدين وعارف الزوكا في السيارة الثانية، السيارة الثالثة أقلَّت طارق محمد عبدالله صالح وصهره ، السيارة الأولى اختفت، صاحت إطاراتها بعواء هائل، وانســكبت في المنزلق الحجري إلى طريق الســائلة، ارتبك ســائق ســيارة علي عبدالله صالح، أومض مصابيح الســيارة مرتين، أشــعل الضوء العــالي، ضرب بعنف متصل على الزمّار. شــعر الســائق بفزع هائل، كانت الســيارة حائط دفاعهم الأخير. خمســة عشر جنديًا مقاتلًا، قرروا الفرار. حــين رأيتها هللت مُكبرًا، اســتبشروا يا مجاهدين "شردوا شردوا"، قابضًا ســلاحي بقوة، أضمه إلى صدري، بتركيز شــديد على ســيارة صالح المُدرعة، التقطت جهاز الإرســال، أصدرت أمرًا نافذًا إلى عربات المراقبــة على الطريق بإزاحة سيارة طارق وفصلها عن سيارة عمّه. طائرات التحالف حلّقت بكثافة، هدير محركاتها أشــعل قلقًا متزايدًا "ماذا لو تدخلت لقصف أي ســيارة تطارد الزعيم؟"، عند مفترق طريق خولان - سنحان، تمكنت عربة مجاهدين من الاحتكاك المباشر بســيارة طــارق، الأوامر واضحة

لمقاتلينا "اضربوا بعنف وبلا رحمــة"، تطاير شرر هائل، تصادم عنيف دفع سيارة طارق إلى الخروج عن مســارها، لم تُطلق رصاصة واحدة من جانبهم، وتكفلت سيارتان أُخريان بضمان ابتعادهم وملاحقتهم، تلك اللحظــة كان علي عبدالله صالــح ورفاقه يمضــون إجباريًا إلى الفخ الكبير، رئيس ســابق وحيد كأيِّ مواطن "متمــرد"، في الداخل كان "مدين" من مقعده الأمامي يُراقب ســيارة ابــن عمه، حين رآها تبتعد، ضرب فخذه بيأس عــارم "طارق انســحب"، عارف الزوكا شبك أصابعه متوترًا، تلفَّت جانبًا بعصبية، علي عبدالله صالح انشغل بتذخير سلاحه الآلي "استعدوا للموت يارجال!"، جفَّ حلق سائقه تمامًا، اهتز بدنه مع دخول السيارة طريقًا ترابيًا فاصلًا، وبتلك السرعة الجنونية التي ســحبت كل قطرة دم وأوقفت كل عضلة في جســده ليحشدها كلها في قدمه اليمنى ويرمي حواسه وتركيزه وأمله وحياته ومستقبله على دواسة البنزين.

على بُعد مئتي متر، الســاعة الثالثة وأربعين دقيقة فجرًا، تسلَّلَت أولى خيوط الفجر وراء أكمــة ترابية، كأنه اشــتعال الجحيم امتد على الوادي المحــاذي للطريق، حيث كانت ثلاث ســيارات تنهب الطريق المُعبّد، طريق سنحان. قرية الزعيم المقدســة. عُمّال بناء في شرفة منزل على الجهة المقابلة شــاهدوا المطاردة، هزّ أحدهــم كتفيه متهكمًا "ما هذا الجنون؟"، الآخــر الذي كان يتابع مســار الصدام المســلح ربط الأمر

بمطاردة محتملة أثـــارت انتباه بقية زملائه، قلوبهم هـــوت إلى أقدامهم لشـــهقة صاحبهم وعباراته "أقســـم بالله أنه الزعيم والحوثيون". وراء تلك الأكمة، الســـاعة الثالثة واثنتان وأربعون فجرًا، برزت فوهة مدفع رشاش مُذخر بخمسة آلاف طلقة عيار ٢١-٧. حين اقتربنا معًا سيارة صالح أولًا، سيارتي على بُعد كيلو متر واحد، ســـيارة المساندة على بُعد ٥٠٠ متر مـــن الفخ الأول، التقطـــتُ جهاز الإرســـال، أمرتُهم بتهدئة الانطلاق كما أمرت سائقي. عيناي تنقلتا بسرعة آلية قصوى بين الأكمة وسيارة صالح، أسمع صخبًا عارمًا بين أضلعي، رفعتُ رأسي إلى أعلى أســـتطلع الســـماء، لم يعُد لطائرات التحالف أثر، أو صوت. في الثانية الـ ٢٥ من الدقيقة ٤٢، للســـاعة الثالثة فجرًا، انطلقت دفعة هائلة من رصاصات المدفع، اخترقت الهواء، وحاجز الصمت، وسرعة الصوت. مؤذن صلاة الفجر في مسجد أسامة بن زيد على مسافة ٥٠٠ متر يسارًا أوقف الأذان عنـــد عبارة "حيَّ عـــلى..." لم يُكمل، تجويـــف أذنيه ردّد صوت رعد مميت، ابتلع لسانه، ارتعش في محرابه، وهوى مُمدًا على بطنه في بضعة أجزاء من الثانية، ظنّ أنَّ الحوثيين اقتحموا المســـجد ليسألوه عن "حيّ على خير العمل"، كان سيُقسم لهم أنه لم يصل إليها بعد، وأنه مازال عنـــد حيّ على الصلاة. صـــوت صاعقة أخـــرى، التصق المؤذن بفراش المسجد، غرس أصابعه في الفراء الخشن، تمنى هذه اللحظة لو أنَّ له قبوًا تحته، يُفتح فينزلق داخله.

حين سمع علي عبدالله صالح صوت سـيل الرصاص العنيف، لم يكن متأكدًا هل ارتجَّت سيارته أولًا أمْ سـمع الصوت قبله؟، كانت المدافع موجَّهة بدقة نحو عجلات السـيارة المدرعة، توجيهات صارمة من مكتب "السيد" مباشرة قضت بالتزام دقيق يُرغم صالح على الخروج حيًا، عبدالملك الحوثي أصرَّ على تنفيذ سيناريو مماثل لمقتل شقيقه حسين قبل ١٢ سـنة. حين اختارني لقيـادة عملية القبض عـلى صالح، كان يعرف أنني متحفزٌ تلقائيًا للانتقام، تذكر القسم الذي قلتُه حاسرًا باكيًا مفجوعًا على أطلال منزلنا "أنْ انتقم من علي عبدالله صالح شـخصيًا". في سنوات الحروب الستّ تحوّل القسـم إلى هوس، مرض لم أكن لأبرأ منه إلا بدم الرجل، هـوس الخلود أيضًا في ذاكـرة التاريخ: هذا الذي قتل صالح!، كشأن علي ناصر القردعي الذي صار بطلًا وقد قَتل بيديْه وبندقيته يحيى حميدالديـن وكان حينها في عُمر صالـح اليوم. قبل ٧٠ عامًا، ليس كُل القتلة ملعونين، هي مسألة فلسفية إذًا، جدلٌ عن الدافع والسبب والنتيجة، هكذا تُدار الأمور ويُصنع الوعي.

الوضع هذه اللحظة لم يعُد بحاجـة إلى ترجيح، أو لعبة احتمال، مَن سيفوز أو يخسر، لقد حُسم الأمر، بخروج سيارة صالح ورفاقه عن خدمة التوصيل إلى حصن عفاش، قلعته الأثرية التي أراد التمترس بها، وإدارة معركة مضادة كانت سـتؤول نتيجتها لصالحـه حتمًا، من أجل ذلك يجب اصطياده الآن قبل بلوغه الحصن الأخير. جنحت السـيارة

إلى الجانب الأيسر وارتـــدَّت بعنف إلى الأمام، عوت محركاتها بشـــدة، انفجرت اطاراتها واحتكَّت على الطريق الإسفلتي محدثة صريخ استغاثة حادًّا، رغم صدمة المفاجأة وهول الرعب والمصير، أدار السائق بمهارة عملية الإيقاف متفاديًا انقلابها، بدّل ناقـــل الحركة أكثر من مرة بسرعة مدهشـــة، كان يطير في مســـاحة اللاوعي، جنبه يميل أقصى اليمين إلى أقصى اليســـار، في الأجزاء الباقية له من أجزاء الثواني الفاصلة للحياة، تذكر أنه رأى علي عبدالله صالح متشـــبثًا بالمقعد، رأى اتســـاع الغضب في عينيه، كان يعرف هذه النظرة جيـــدًا. عشرون عامًا في خدمة الرئيس والزعيـــم، علّمته طبائـــع إيماءاته، ومعاني نظراته، وأشـــكالًا واســـعة لوســـائل حواســـه المتعددة، حين رأى تلك النظرة المتوثبة، بؤبؤ العين، مشهد أعيرة المدفع الرشاش، وهج الاحتكاك والنار والبارود، أدرك أنَّ الرجل في انتظار مواجهة حاسمة.

أما أنا، حيث توقفَت ســـيارتي على بُعد أمتار من سيارة صالح، ألقى شـــفق الضوء الملتهب ظلال أشـــباح تطير في الجـــو، وتقف على أقدامهـــا مهرولة باتجـــاه الســـيارة المُحطّمة، رهبة اللحظـــات الأخيرة واستعداد الموت لاشـــتباك آخر وجهًا لوجه، صيحات المجاهدين تشق هجعة الضوء وســـكينة الصبح الكظيم. وســـط عاصفة رملية عنيفة، ودخان أســـود كثيف، خرج علي عبدالله صالح إلى العراء بلا ســـلاح، عاجلتُه بثلاث رصاصات اســـتقرت في بطنه ودفعته بعنف إلى الوراء،

قدمُه اليسرى كانت مطعوجة وراء ظهره، ضغط بكفين مرتعشتين على ثقوب نزيفه الحاد، لم يفقد وعيه، لكنه فقــد قدرته على الحركة، إحدى الرصاصات اخترقت عموده الفقري وأقعدته عــن الحركة. ابنه مدين أصيب بغشــية أفاق منها على فوهــات بنادق نشــبت في وجهه وأمام عينيْه مثل شوك القنفذ، اقتيد بعنف إلى الخارج، كُبّلت يداه وراء ظهره، ضربة عنيفة أصابت مؤخرة رأسه بعقب بندقية أحد المجاهدين، أفقدته توازنه وســقط أرضًا، صراخه الحاد "أبي.. أبي!" اضطرت مُجاهدًا آخرَ لركله بقســوة في معدته، اختلط الصراخ بالأنين. عارف الزوكا أصابتْه رصاصة رشاش اخترقت جانبًا من شق السيارة الأيمن هشّمت عظمة فخذه اليسرى، ســحبه المجاهدون على الأرض مسافة متر، أوقفوه على قدمه الســليمة بالقوة. الزوكا شــاهد صديقه الزعيم ينزف في مكانه، حاول الدفاع مشــفقًا عليه، قال بضع كلمات بفم مملوء بالتراب والدم، أخرســتْه ضربة عنيفة مفاجئة حطَّمَت أنفه وأدمَت شــاربه. التقطتُ الهاتف واتصلتُ مباشرة بمكتب السيد، جاءني صوته سريعًا، شرحتُ الموقف، وانتظــرتُ التعليمات الأخــيرة، صمت برهة، ثــم قال "نفّذ" أضفت: "والزوكا"؟

- هو الأول.

تقدمتُ ناحية عارف الزوكا، كان ممزقًا بما تعنيه الكلمة، خدوشه ملأت جبينه، وجهه تحول لكتلة من الدم والأنين، قميصه ممزق متسخ،

قدمُه اليمنى معلقة في الهواء تنزف بشـــدة، حين رآني مقبلًا وفي قبضتي اليمنى تدلت بندقية الكلاشـــينكوف، قال كلمة واحدة "الزعيم" أجبتُه بحسم "دافِع عن نفســـك أنت!". أغمض عينيْه بألم موحش، أصدقاؤه الحوثيون يفعلون به هكـــذا؟، مَن خاض معهـــم كل جولات الصراع الســـياسي في جنيف والكويت، الخبز الذي أكله مع الصماد والمشـــاط والحوثي والمداني، كل شيء قدّمه في ســـبيلهم أدرك هبـــاءه المنثور، ربما لأنه المذحجي الوحيد، وربما لأنه نائب الزعيم، الرجل الأكثر خطرًا إذا تُرك حُرًا. قبل أنْ يُكمل الشطر الأول من الشهادتيْن، كُنت واقفًا أمامه مباشرة على بُعد سنتيمترات فقط، مُصوبًا فوهة سلاحي. خلال أقل من ثلاث ثوانٍ كان عارف الزوكا مثقوبًا بخمس وعشرين رصاصة، تطاير دمه في الهواء، نتف من اللحم التصقَت بوجوه المجاهدين وألبســـتهم، كان مشهدًا دمويًا رهيبًا.

علي عبدالله صالح شـــاهد فوهة بندقية، تجويـــف غامض، قعر مخيف يلفه فولاذ بارد بحواف صارمة، رأى وجه حسين الحوثي، عقب البندقيـــة مغروس إلى صـــدره، أصابعه اليسرى تقبض بطـــن البندقية، السبابة مُقوّســـة على الزناد. ســـأله "هل أنت حيّ؟"،حسين كان يحدق فقط، لم يُجب، حدّث "صالح" نفســـه "يبدو أنه لم يســـمع"، رفع نبرته. صاغ ســـؤالًا آخر "ألم يقتلوك؟"، تبددَت صورة حســـين، شاهد وجه ابراهيم الحمدي، ولمّـــا تبدَّد، ظهر وجـــه عبدالله عبدالعـــالم قائد فرقة

المظلات "المنفي"، تبددَت ملامحه، شــاهد وجه نائبه السابق "علي سالم البيض"، شَــعره الكثيف فاحم الســواد يغطي نصف جبهته. شــاربه المنمق. قال صالح: أهذا أنت؟ شيء ما في عينــي نائبه أثاره، "هل هذه شماتة"؟ "هل تســخر مني يا هندي؟ أنت مَن فعل بنفسه ما فعل، أنت مَن قرر الحرب وأعددت العدة لتنال مني وتحكم صنعاء، الجيش الذي حاربتَني به هُــزم، وقد سرّحت أغلــب ضباطه ومقاتليــه، لم يعُد لهم وجود ســوى في خيالاتك المريضة أيها العجوزُ الخرِفُ. انتابته ضحكة قلقة، طوّح بكفيه في الهواء "هذا ليس أنت يا علي سالم، هذا الوجه ليس وجهك. خمش أصابعه في الهواء متحديًــا "لن تعود إلى صنعاء ولن ترى اليمن بعد هروبك منها، أنت خائنٌ، عميــلٌ، لا أنت ولا هادي الفار، ولا حميد الأحمر، أنتم جُبناء، أما أنا فقد قلتها كثيرًا: ماقد خُلق من يقول لعلي عبدالله صالح يخرج من اليمــن، لم تُنجبه أمُّه بعد مَن يتجرأ أنْ يمدَّ يده ليقذف بي خارج حدود بلادي، وطني، عاصمتي، أنا لا أهرب، أنا مشروع شهادة، بلى أنا الشهيد علي عبدالله صالح عفاش الحميري حفيد سيف بن ذي يزن، أنا هنا وسط صنعاء، أنا..

أسكتتْه رصاصة نحاسية دخلتْ طرف ثنية أنفه، اخترقت الجِلد، مزقت اللحم، قطّعت الأعصــاب القحفية، كسرَت الجمجمة، توغلَت في المخ بوحشــية، فجّرت عظمة الجمجة من الــوراء. لم يُغلق "صالح" عينيْه، حين مرقت الرصاصة داخله بسرعــة الضوء، أراد أنْ يرى وجه

قاتله، أنْ يراني. قال جملته الأخـــيرة "الرجال لا يخبئون وجوههم"، قبل أنْ أضغط الزناد، سأل نفسه: مَن هذا الذي يقتل رجلًا في الثمانين، يقتل الرئيس، موحِّدَ اليمن، الزعيم، ألا يعرفنـــي؟ هل يعلم أني علي عبدالله صالح؟ هل شـــاهدني في التلفـــاز؟، في انقباضة الألم الأخير تشـــنَّجَت حواس صالح، عضلات وجهه، ذراعيْه، ســـاقيْه، ضغط على أســـنانه بقوة. ثم تهاوى أمامي كقطعة قماش، ســـقط الرجل الذي ظنّ اليمنيون أنه لن يموت، غادرت روحه الشيطانية، وثأرتُ لأبي، لإخوتي الصغار الذين دفنتهم قذائف جيشـــه المرتهن لأميركا وإسرائيل، ركلتُه بعنف في ســـاقه، على كتفه. أردتُ إذلاله، إخضاعه، تعذيب كل شبر من جسده، تقطيعه وإذابة جسده في حمض الأســـيد، تكبيله بداخل حظيرة خنازير وتفجيرها. كنتُ ألهث مســـعورًا، أطلقتُ خمس رصاصات أخرى على بطنه، انتفض جســـده للحظات وعاد إلى ســـكونه، صرخت "أغمِض عينيْك أيها المجرم"، لعله رآني، تحدى بندقيتـــي، وقدرتي على تمزيقه، لم يُبدِ اكتراثًا، لم يرتعش، لم يطلب العفو أو الرحمـــة. حين طرتُ في الهواء بقدمٍ مصوبة إلى رأسه، انتزعتْني يد "رشـــيد فارس" إلى صدره، كبّلني بذراعيْه، كنت أرفـــس مثل ثور هائج، صرخـــتُ في وجهه "اتركني، لم أشفِ غليلي بعد. دعني أسحق رأسه!"، صرختُ وصرختُ مثل مجنون خطر وغاضب، تكالبَت أذرع أخرى إلى "رشـــيد"، أحاطتْني بقبضات حديدة مؤلمة، بعد دقائق كُنت أرشـــح من البكاء مكورًا بجســـدي على

إطار سيارة الهايلوكس الأمامي، شـــاهدتُ أصابع كفي الأيسر ترتعش بشـــدة، قبضتُ عليها بأصابعي اليمنى، وسرَت رعشـــة أقوى وأشد، انتفضت أعصابي كلهـــا، فقدتُ القدرة على التحكم، ســـقطتُ بعنف، شـــعرتُ أني مكبلٌ إلى طاولة تعذيـــب بالكهربـــاء، التصقت بصدغي دوائر نقل نحاســـية، ضوء مصباح غازي يشـــتعل في الأعلى أمام عينيّ مباشرة، أحدهم يُحرِّك ناقل التيار إلى الأســـفل، ثم تلك الالآلم الفظيعة تُحرِق كل ذرة وخلية ومسام وشعرة، تُنضجها من الداخل، حالة هذيان عشـــوائي لواحد وخمســـين مليار خلية عصبية في لحظة واحدة، جنون شـــواء عند لحظة الثأر، لحظة النـــصر، لحظة القصاص. حين ســـكنتُ وهدأتْ أعصابي، التقطتُ هاتفي بحيوية غريبة كأني لم أفعل شيئًا، كأني وجدت صُدفة جثة رجل قتيل، وشرعتُ في تصويرها. منحتُ المقاتلين فرصة لتحديد سيناريو سريع، لمست أيقونة تسجيل الفيديو، في اللحظة المناسبة ظهر صوت حميد الشامي "ارفعوه يارجال، اليوم يوم الثأر منك يا عفاش على مقتل ســـيدي حســـين، الله أكبر، الموت لأميركا، الموت لإسرائيل، اللعنة على اليهود، النصر للإسلام".

أعدتُ مشـــاهدة الفيديو مرة أخرى، ولم أكـــد أرفعه مباشرة إلى "مكتب الســـيد" حتى جاءني صوته محييًا، مبشرًا، فرحًـــا مثل طفل نال جائزة عيد مولده، قال عبدالملك الحوثـــي: "قد صرتَ فينا الجوكر"، ثم أردف "اليوم يحقُّ لي أنْ ألبس جنبية الشهيد حسين، رضوان الله عليه"،

علقت ســاخرًا "يحقُّ لي أن ألبس جنبية أبي -عليه الســلام-"،لم يُعلّق، ابتلع مرارته وسكت، ثم أردف بمرح: أنت اليوم فعلًا حقي القُمري، لم ابتسم، فقط أغلقتُ الهاتف، وضعتُه في جرابي، وغادرت، منعتُ أحدًا من مرافقتي، أشعلتُ محرك السيارة، ومشيتُ نحو صنعاء.

عند الساعة الثانية ظهرًا، نشر الحوثيون جزءًا من الفيديو، قالوا إنَّ "علي عبدالله صالح" قُتِل هاربًا في طريق ســنحان. عائلته أصدرت بيانًا أكدت مقتله داخل منزله. في العــالم الآخر لم يكن يعني صالح أين تلقى الرصاصة، في المنزل في الحوش، وهو يغتسل، على حدود سنحان، فوق القمر، سؤال واحد فقط كان يشغل روحه: مَن سيثأر له؟

أبـــي:

قد قتلتُه لأجلك، لأجل إخــوتي الصغار، اليــوم.. بعد أنْ أنهكني الورم في صــدري، في الليلة الأخيرة لوفاتي، حين أفقتُ من غشــيتي كان عبدالملك الحوثي يتأملني جالسًــا على كرسي أزرق. يمســح شَــعر رأسي وفي عينيْه امتنان لجريمتي، بشــفتيْن يابستين وجســد ضامر مثل عجوز في التســعين لاحت ابتســامة قاســية، صنعتها بأعجوبة، نســمة رطبة من نافذة زجاج مستشــفى الحرس الجمهــوري طافت حولنا، كنــتُ معه كــما كُنا دائــمًا في طفولتنا، أصدقاء إلى الأبد. بصــوت خفيض واهٍ قلت: هل تــراني.. لم أعُد "حقك القُمري"، احتضن كفي اليمنى "ســتظل كذلك"، ابتسمتُ،

ســعلتُ، بصوت متحشرج: "هل تراني أدخل الجنة؟"، مطَّ شفتيْه، أراد أنْ يقول شــيئًا لكنه ســكت، ســألتُه عن تاريخ اليوم، أجاب "٢٦أغسطس ٢٠١٩".

- ياه.. عام ونصف هنا؟

- نعم.

أدرتُ وجهــي إلى النافــذة، تأملتُ ســتائرها الرمادية، منضدة رمادية، دولاب خشــبي رمادي، عمود فضي بحامل مــزدوج، عباءة بيضاء لطبيب تركها ليلة أمس في نوبة مراقبتــه، قلت: لم يعُد لي في هذه الحياة سوى ساعات، أستحلفك بالله أنْ تجيب عن سؤالي بصدق.

- أعرف ما ستقول.

- مَن فعلها؟

- ارتعش صوتــه قليلًا: لم نكــن متأكدين جــدًا من إخلاص والدك، أنت تعرف تلك القصة القديمة عن مشــاركته قتل ابن الإمام في صعــدة، وصلتنا معلومــات مؤكدة أنه ضمن خلية استخباراتية للأمن السياسي ترصد أماكن المجاهدين. كان يكرهنــا. يكره آلَ البيــت. واجبنا أنْ نحمــي مقاتلينا، الحرب السادسة لم تكن سهلة أبدًا وأنت تعرف ذلك.

قاطعتُه بصوت مبحوح: لكني كُنت معكم.

ارتفع صوته مُحتدًا: بلى معنا، لكنــه منعك من إعلان توليك لي، كان يُســمم عقلك بذلك الهراء العجيب عــن الجمهورية، وكراهية آل البيت.

- لكن..

قاطعني: لا يا شــاهين، أنت تعرف أني أحبك، ولم أكن لأؤذيك وإنْ آذيتني.

- لكنه أبي، لقد آذيتَني فيه.

- هو مثل عتبة بن ربيعة.

- وهل تراني الوليد؟.

- نعم. لقد توليتَني وتركتَ جناح المنافقين.

- لكني لم أفعل.

استفزته عبارتي، نهض مغاضبًا: لولا أنك شاهين لكان لي معك شأنٌ آخر.

قبضتُ على فراش السرير بغضب: أبعدَ كل ما فعلته تقول لولا أنك شاهين.

صمت قليلًا كمَن يبتلع غضبه، ثــم أردف بصوت هادئ، لو لم نفعل ذلك لكُنت أنت عدوي، وكنت قد خسرتك.

- كُنت سأرحل فقط.

انتفض غاضبًا: والدك لم يدَعْ لنا خيارًا آخر، ولن أدعك ترحل.

ثم شــبَّك أصابعه أمام فمــه، وأردف: لم أدع والدي يرحل كما يشاء.

تنهدتُ بأسى، أطلقتُ زفرة حارة، سعلتُ مرة أخرى، أسندتُ رأسي إلى الوســادة القطنية، ســحبتُ جســدي إلى أعلى قليلًا، آلمتْني القروح المنتفخة في ظهري وقدميّ، كنتُ أعرف أنَّ وفاة والده الغامضة لها تفسيرٌ واحد "بقاؤه يعني أنَّ عبدالملك لن يُصبح إمام الزيدية".

ســألتُه: لماذا الآن؟ كنت ســتكذب عليّ ككل مرة، ألأنني اليوم ذاهبٌ إلى الموت، اعترفتَ؟!.

- بل لأنــك لم تزل ذلك الأحمق حين ينشــغل بالــك بثرثرات البعض تظل تسأل وتسأل، حتى تلقى جوابًا، وها أنا أُجيبك؟

بصقتُ بداخــل جراب جلــدي مُعلق مثل قــلادة على عنقي، انهمرتْ دموعي صامتة بلا سؤال هذه المرة.

أشــاح بنظره ناحية الدولاب، تردد قليلًا، ثم قعد على الكرسي، وضع رجلًا فوق أخــرى، وثبّت عينيْن صارمتــيْن إلى وجهي، مدَّ كفه اليمنى وطفق يتحدث، لم أســمعه، كان يهذي عــن التضحية، والنفس الأمّارة بالسوء، أحقاد بني أمية، وعبارات مملة عن الفتنة وعن آزر والد النبي إبراهيم.

صوت طنين حاد في أذنيّ، رائحة لعاب أصفر يخرج من شدقي الأيمن، أحسُّ بلزوجة دم تنساب من أذني، حين رآها عبدالملك الحوثي صاح في الطبيب، سألت نفسي قبل غشية الموت: أيّ ريح لعينة قادتني إليك!.

من بعيد، خلف النافذة، وراء مرتفعات حزيز، رأيتُ "علي عبدالله صالح" مرة أخرى، يرتدي بذلة سوداء، رأيتُه طفلًا يعبر أزقة قريته بجلباب قصير، وكوفية من سعف النخل، يلهو حافيًا بفرح وسط مطر الصيف، يرفس رجليْه في بقع الماء، يضحك. كنتُ هناك بقامتي الطويلة، بذات العينيْن الزرقاويْن والشعر مجدول على كتفي، جلستُ القرفصاء، أشرتُ إليه أنْ يقترب، "ما اسمك؟"

- علي

مددت كفي أصافحه، ابتسمت: أنا آسف يا علي!، اعتراه خوف وحيرة، حين رفعتُ رأسي إليه كانت أصابعي قد تحولت إلى فوهة مسدس، سمعتُ صوت رصاصة تناقلت الأزقة صداها. حدّقتُ أعلى الدار الطويل، امرأة ريفية تصرخ بلوعة أم مفجوعة، تلفتُّ حولي ملدوغًا، ثم كان هو مطوحًا على الأرض غارقًا في بركة تحولت إلى لون أحمر، صرخت، انتفض جسدي، ارتعشَت حواسي.

يعود صوت عبدالملك الحوثي، أجساد بيضاء تحوم حولي، وجوه ضبابية، وشخص واحد وقف بلا حراك، هنا على حافة سريري، شاربه

أشـــيب وســـحنة بلون القمح، عينان حزينتان، انحنى، قرّب شفتيْه إلى أذني، همس "لِــــمَ قتلتــني ؟".

- مَن أنت؟

كانت صورته تتلاشى حين جاء صوته من بعيد:

- عارف..

عارف الزوكا.

٢٦ سبتمبر ٢٠١٩

مارب